إيمان أبو غزالة

للموت طَرَقات ثلاث

قصص





3���JMk�3����藝!H2Cqjs3>��.��|��|��7¥k���T(T-
da5��@��r i=-_��J g��]N`#��N��p?
"FDl2p��']:Z��&%)��j o'hY��mh<���P I8k
*B��ÓN5�����'_dlaK 7H��w`���L ZN��P
D���r���g~r|3ꝑ%���b�� ��A ��*$ {
"�������.1<��td1#��□n\���9zE��js '''c��.[���fHI}
_����v h V"����q�����鎔5
##]���@_0~1 6□B��oc j

للموت طَرَقات ثلاث

إيمان أبو غزالة

الطبعة الأولـى : 2025

تصميم الغلاف : إسلام أحمد

تدقـيق لغـوي : شركة المحرر

إخـراج فنـــي : يوسف الفرماوي

رقـــم الإيـداع : 25194 / 2024

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-8842-12-8

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقيًا أو إلكترونيًا أو صوتيًا إلا بإذن خطي من الناشر.

المُحرِّر

info@almoharer.com

01013146678

01124549848

daralmoharrer

للموت طَرَقات ثلاث

قصص

إيمان أبو غزالة

المُحرِّر

لأن الموت في حقيقته حياة.

ولأنه لا يحتوي على مفاجأة..

ولأن الموت يحدث في داخلنا في كل لحظة حتى ونحن أحياء..

كل نقطة لعاب.. وكل دمعة.. وكل قطرة عرق.. فيها خلايا ميتة.. نشيعها إلى الخارج بدون احتفال..

«مصطفى محمود - لغز الموت»

إهداء

إلى مخزن الحكايات ... إلى أمي.

حزن ساق

أصاب ساقي اليسرى خلل غريب بعدما بترت اليمنى عن طريق الخطأ.

كنت قد حجزت بالمشفى لإجراء عملية جراحية بساقي اليمنى، كسر مضاعف احتاج إلى شرائح ومسامير، هكذا أخبرني الطبيب. لن أنكر أنني منذ أن عرفت، ومنذ رأيت الغراب الصغير يقف على سور شرفتي، وقد ملأني التشاؤم، فأنا رجل يسلم نفسه للعلامات، ويجد في كل لفتة وحركة وكلمة إشارة، لا يمكن أن تكون كل تلك الأشياء عبثية، وهو أمر ضد طبيعة الكون.

خرج الطبيب من غرفتي، فأخبرت زوجتي بنبرة حاولت أن تكون هادئة، أنني لن أجري تلك الجراحة.

كان اعتراضًا طفوليًّا ساذجًا، أو رفضًا لشخص كبير يعكر مزاج من حوله، احتدت زوجتي، ذكرتني في تعب أنها ساقي ما نتحدث عنها، ليست ذراعًا نستطيع التعايش من دونها، إن كنت لن أمسك قلمًا فذلك أمر محتمل، ولكن كيف لا أسير!

أردت أن أخبرها أن الأمرين بالنسبة لي سيان، أنني أسير بساقي لأبحث عن الحكاية في وجوه الناس، وأدونها بيدي التي تجد المتعة في النميمة عنهم مع الورق، لكني لم أقل شيئًا بعدما لاحظت الدوائر السوداء التي ارتسمت أسفل عينيها. أتكون قد تكونت بفعل الحزن أم تأنيب الضمير؟ ألم تكن هي السبب الأول في وصولي إلى المشفى؛ لأنها أرادت تعليق زينة رمضان بالشرفة حيث رأيت الغراب المشؤوم؟

آثرت الصمت، ليس خوفًا من نوباتها العصبية، ولكن لأن ساقي الأخرى بدأت في حركات غريبة منذ أن كسرت أختها، كنت أتعرق فيها بشدة، عرقًا مستفيضًا يهيئ للرائي أن ماء قد سكب فوقها، إلى جانب الوخز المؤلم، وردات فعل عصبية مفاجئة تركل فيها الهواء دون قدرة تحكم مني.

أوعزت الأمر في البداية إلى عقلي، ربما يتعلق الأمر ببعض النهايات العصبية، ربما هي طريقة العقل لحمايتي من شيء ما، لا أعلم، فالعقل وحده كمتاهة يصعب السير داخلها.

حُدِّد موعد العملية، الواحدة ظهرًا من صباح الإثنين الموافق الثامن من يناير، شهر أكرهه، وبرودة لا أحبها، وإشارات مفرطة في العتمة والقلق. أردت تغيير الموعد، أخبرت طبيبي برغبتي:

- أريد تأجيل موعد العملية.

- لماذا؟

- لا أحب الشهر، ولا الفصل.

رمقني بنظرة طويلة ميتة، واستدار إلى الممرضة كي تبدأ في تجهيزي، كما لو أنني موسيقى مزعجة لا يفهمها، أو فيلم صامت لم يرقه.

غرفة العمليات بلا رائحة، عكس كل الغرف الأخرى التي سمعت عنها من أصدقائي، أو دلفت إليها بعمليات صغيرة كعملية اللوز، أو المرارة، أو عملية زراعة الشعر الأخيرة.

لا أثر لرائحة التعقيم، ولا الرائحة التي يصيغها العقل للبنج، لم أر إلا وجوهًا مقنّعة بأقنعة ذكرتني بكابوس الكورونا، وطاولة صغيرة قد وضع فوقها مشارط طبية وشاش، ومنشار طبي مرعب لم أفهم وظيفته في عمليتي، وأشياء أخرى لم أنتبه إليها.

خدرني الطبيب بسرعة، كان ماهرًا للحقيقة، سألني عن اسمي كاملًا، وعندما طلب معرفة عمري أطبق الظلام على عقلي، فقيّد لساني.

آخر ما أذكره ساعة حائط رمادية معلقة أمامي بغرفة العمليات، أشارت عقاربها إلى الواحدة، لأستيقظ بغرفتي حيث لم أعرف الوقت إلا من غياب الشمس، ووجه زوجتي المظلم الغارق في الدموع.

ابتسمت بتعب، تخيلتها لقطة رومانسية من أحد أفلام الغرب، حيث تكتشف الزوجة قدر محبتها لزوجها في موقف عصيب كهذا، لم يكن عصيبًا لتلك الدرجة -من وجهة نظري- فما هي إلا عملية بسيطة حدثت من قبل لابن صديقة، وتعافى منها، بل تحول لعفريت صغير لا يتوقف عن الركض.

مددت يدي إليها استكمالًا للمشهد الرومانسي، إلا أنها ازدادت نحيبًا، وقد خرجت الكلمات متقطعة من فمها بنبرة اتهام واضحة أنني نحست نفسي.

لم أفهم الجملة، ربما هو البنج الذي لم يزُل أثره تمامًا بعد، هززت رأسي بعدم فهم، فأشارت إلى ساقي قبل أن تهرع إلى الخارج.

ما معنى أن تجد الحيز الذي امتلأ بك فجأة مفرغًا منك؟ لا أعرف، حتى وأنا أحاول استيعاب ما أرى لم أستطع الإجابة، حاولت الحديث، الصراخ، طلب أحدهم، لكن كل شيء امتزج داخلي، كنت أشير إلى الفراغ، وأنظر حولي كما لو أن الجدران الرمادية الصماء ستعطيني الإجابة، شدت أعصابي كوتر، وشعرت بعروقي تنفر، وتنفسي المعتدل منذ لحظات يصبح ثقيلًا كما لو أن الصدمة تحولت إلى مقطورة كبيرة تدهسني.

منغمسًا بحالتي، اقتحم أحد الأطباء الغرفة فجأة، لم يكن الطبيب الذي وكل بعمليتي، فهو في تلك اللحظة -كما قيل- قيد التحقيق، حاول الطبيب مواساتي، وإخباري عن تعداد الأخطاء الطبية الوارد حدوثها، وأن تبدل البيانات مع حالة أخرى أمر يحدث كل يوم، وذكرني بحالة عرضت على التلفزيون منذ أسابيع لأحد المرضى الذي دخل لاستئصال المرارة، فاستؤصلت معدته.

لم أكن أنصت، كنت أراقب ساقي الأخرى التي انحنت دون إرادة مني، أصابعي الطويلة تتحرك نحو فراغ أختها، وكأنها تتلمس وجودها بدموعها التي لا تجف ككلب يحرك أنفه يتشمم صاحبه الغائب:

- ساقي تبكي.

نطقتها مقاطعًا إسهاب الطبيب في الشرح، فصدم من التعقيب، صمت لثوانٍ، قبل أن يتبرع بالكشف على ساقي الباكية، فحص أصابعي، سار بأصابعه على أعصابي وعضلاتي النافرة، تأكد من سلامة عظامي، لون الجلد، حرك ساقي لعدة مرات ليطمئن على خلوها من الكسور أو الكدمات، ثم أعلن بغباء:

- جسدك الحار يتعرق بغزارة.

عله لم ينتبه إلى انتفاضي من البرودة، أو أنه لا يعلم أنني أكره شهر يناير؛ لأنه ابن الشتاء.

حقنتني الممرضة التي ظهرت فجأة بمهدئ قوي، فارتخت أعصابي، وارتخى وجه الطبيب المتوتر قبل أن أسقط في النوم.

استيقظت منتصف الليل، لم أجد زوجتي، لكني وجدت ورقة منها تبلغني فيها أن عليها العودة إلى الأولاد، وأنها ستعود في الصباح، كانت كذبتها واضحة من خطها فوق الورق، عندما تكون صادقة تزيل الورقة بثلاثة أقواس متشابكة على شكل شفاه، وعندما تكذب تغفلها، ربما لأنها تخجل من مزج الحب الجيد بفعل سيئ كالكذب.

وضعت الورقة إلى جواري، وأنا أنظر إلى موضع ساقي المفقودة أُمني نفسي بطفولية أنها في أثناء نومي قد نبتت، ولم يحدث. لم أجد إلا احتضان ساقي الحاضرة إلى فخذي الأيمن اليتيم، وكأن عقلي ما زال مخدرًا، كلما حاولت فصلهما، أبت ساقي اليسرى.

بعد أيام من عدم التصديق، تقبلت الحقيقة وأنا أستند إلى عكاز في طريقي للخروج من المشفى، بعدما توعدتهم بغلقه، وأن القضاء لن يضيع حقي، رغم اعتذار الطبيب الذي أجرى العملية، ولكن أي اعتذار بإمكانه تصحيح خطأ جسيم ستتغير حياتي كلها بسببه! عدت إلى بيتي، رتبت لي زوجتي سريرًا منفردًا، فهمت أنها لا تتقبل نقصاني، أنها بطريقة أو بأخرى تعاقب نفسها بهجري لإصرارها على العملية التي تحولت إلى مصيبة. لم تنظر نحوي مرة واحدة منذ أن عدت إلى البيت، لم تلمس موضع البتر رغم توليها مهمة تغيير الضمادات، لم تربت على رأسي في مواساة مزيفة أو حتى شفقة، ولم أهتم، كل ما كنت أريده في تلك اللحظة، حزمة من الأوراق، والأقلام أنثرها فوق سريري كما اعتدت وأنام، لأستيقظ وأجد الحكاية حاضرة برأسي، فأسكبها سريعًا فوق الورق الأبيض قبل أن تخونني وتهرب.

تناولت المنوم، استلقيت على جانبي الأيسر، بعدما فقدت قدرتي على النوم على جانبي المعتاد، اضطررت إلى وضع وسادة أمامي، أسند فوقها فخذي اليتيم حتى أصل إلى توازن يتيح لي نومًا هادئًا. بعد خمس دقائق سقطت في أحلام متداخلة، كور صوفية هشة، تتحول إلى كور عملاقة أحملها بين يدي، أشعر بثقلها وخفتها في اللحظة ذاتها، سيقان تتطاير حولي، تلتف حولها كور الصوف، تصنع حلقات لتصل بينها، فتتحول بعد جمعها كلها إلى ساق واحدة، ساقي المبتورة التي أركض بها.

استيقظت على رجرجة حادة، كأنني أركض بالفعل، اعتقدت أن زلزالًا ضرب المدينة، فأصبحنا جميعًا كراقصين في ديسكو، لكن ثبات الجدران والإطارات والمصابيح، بدد بدايات الرعب، لأجد وأنا أنظر بعفوية إلى ساقي اليمنى التي رافقتني في كابوسي، أن ساقي اليسرى قد علقت بين إصبعيها السبابة والإبهام قلمًا، وانغمست في الكتابة!

إذن أنا في حلم داخل حلم، هذا ما اعتقدته، حاولت إيقاف ما يحدث بدعك عيني، بقرص يدي، ولكني فشلت، حاولت مجددًا السيطرة على ساقي الغريبة بقدرة عقلي على قيادة جسدي ولم يحدث.

ساقي اليسرى الآن منفلتة، ذاتية الإرادة، مستقلة عني، كما لو أنها كائن آخر تملك جزءًا من جسدي.

استرخيت قدر استطاعتي، رغم أن جسدي غير متشنج، حاولت السيطرة على رعبي حتى أصل إلى النهاية، فمن غير المعقول أن تدون ساقي للأبد، فيدي مثلًا كانت تكل، تتعب وتعلن عصيانها، ورفضها الإمساك بالقلم، وسترفض ساقي في لحظة ما أن تكمل للسبب ذاته.

ساعة، ساعتان، ثلاثة، الفجر يشق العتمة ببطء، وساقي تكتب بطريقة محمومة، ورغم التشنج الذي يقتلني ألمًا لا تتوقف.

في لحظة قررت أن أتناول حبة منوم أخرى، الحل الوحيد لفصلي عنها وعما يحدث حولي من غرابة، فتوقف الركض فجأة، لفظت ساقي القلم، واستسلمت لحركتي كما لو أنها تعيد إليّ قيادة جسدي.

التقطت الورق بهدوء، خشيت أن أوقظ الروح المجنونة التي تلبست ساقي. كان الخط قريبًا من خط يدي، فشعرت بمجمل الغرابة، أن يدي ربما تكون بشكل ما متواطئة، ربما قدمت قدرتها لساقي المجنونة كنوع من المواساة... لا أعرف. تجاهلت الفكرة، ابتلعت ريقي وأنا أحاول كبت رغبتي في الصراخ باسم زوجتي، أخذت نفسًا عميقًا أرخي أعصابي، صببت تركيزي على الجمل المكتوبة، لأجد مرثية طويلة من الساق اليسرى إلى أختها المفقودة، مرثية لم تخلُ من توبيخي، والشفقة عليّ، شفقة على حد تعبيرها لم تمنحها لي زوجتي.

كنت قد قررت تركها إلى جواري لتلتقطها زوجتي وترانا فيها فتشعر بالخجل، لكني تراجعت، فالورقة، والحكاية، والكلمات نفسها بلا قيمة ما دام الفقد المادي الواضح لم يستجلب أي شكل من أشكال العاطفة. فتحتُ الدرج الجانبي وأخفيتها على طريقة أن أتجاهل الأمر ليتجاهلني، بمجرد أن أغلقت الدرج واعتدلت، بكت ساقي من جديد، وتلك المرة شاركتها البكاء.

غرق الحواس

الواحدة صباحًا

محاط أنا بالماء، يغلفني ككيس سلويّ حول جنين، برودة تخدر جسدي، أرفع ذراعي لأعلى كأني ضد الجاذبية، رغم أن الماء نفسه يشدني لأسفل، أستسلم، أشاهد فقاعات الهواء تخرج من فمي، عيني مفتوحة جزئيًّا، لم أعتد فتح عيني داخل الماء، أرى بصورة ضبابية، ظلمة من حولي يخترقها أضواء الجسر المنكسرة فيه.

الواحدة صباحًا وثانية

أحاول تذكر ما قادني إلى هذا التغليف المائي، أقدح ذهني في محاولة للوصول إلى نقطة البداية، أرى وجهها مشوشًا، كانت تبكي، أذكر بكاءها ولا أذكر السبب، ربما انفصلنا، كما نفعل دومًا، علاقتنا مطاطية، تتسع لتصنع هوة كبيرة نتوه فيها عن بعضنا، ثم تضيق لتزرع كل منا في حضن الآخر، مؤكدًا أننا تشاجرنا، انفعلنا، غضبنا، وفي ذروة خليط المشاعر المتأججة، قررنا أنها آخر مرة، لا عودة، لا ندم، لا مسامحة، لا شيء.

خرجتُ وأغلقتُ الباب خلفي بقوة، أوشكت على تحطيمه، تمنيت أن يتحطم، ليصنع نافذة واسعة، تطل برأسها من بين حطامها، وقد سال الكحل الذي أحبه ولطخ وجنتيها؛ لتخبرني أن أعود بنبرتها الثابتة التي لن تهتز رغم اهتزاز كحلها. لكن الباب لا يتحطم، ورأسها لا يطل من الباب، وكحلها الذي أحبه في كل حالاته لا أراه ملطخًا.

الواحدة صباحًا وثانيتان

صفعتُ باب السيارة، أصفع كل شيء في تلك اللحظة، هذا أذكره، هذه سمة غضبي، وطريقة اعتراضي، وردة فعلي على الرفض، أدرت السيارة على أقصى سرعة وانطلقت، لم أمنح المحرك فرصة ليستيقظ ببطء، وإنما وكزته فانتفض، تقودني الرعونة كأنني مراهق لم أتجاوز الخامسة عشرة، لا رجلًا قد كشط منه الزمن ثلاثين طبقة، وما زال يكشط، أنطلق بسيارتي وأنا أرسم برأسي صورة لأحد أفلام الأمريكية، حيث سيارتها تتبع سيارتي، تضيء المصباح الأمامي، وتغلقه لأكثر من مرة وكأنها تطرق باب قلبي الغاضب حتى أعود، فأعاند وأسير بتصميم إلى الأمام، فتتوقف سيارتها، أرى بعين الراوي العليم الذي وكلته أمري أنها تخبط فوق المقود في ندم وتنهار باكية، وقد دفنت وجهها بين يديها، يخبرني الراوي بما رأى، أوقف السيارة فجأة، أبتلع غضبي، أزفر زفرة طويلة أستدعي الهدوء الذي فر مرتعدًا، واختبأ بمكان مظلم داخلي، وتحل عاطفتي الجياشة بصدري ككتلة ثلج باردة، أترك السيارة وأركض إليها، أفتح الباب، ترطم وجهي موسيقى خفية تتداخل مع المشهد، أخرجها بقوة وأدفنها في صدري معلنًا تناسي ما حدث.

لا شيء مما تمنيته يحدث، أستمر في القيادة، أزيد من السرعة في الطريق المظلم الخالي، ولا أخاف.

أحفظ الطريق من منزلها إلى بداية المفترق ككف يدي، مررت به عدة مرات منذ عرفتها، المرة الأولى كنت أسير خلف سيارتها بسيارتي، عيني مثبتة على كتلة رأسها الأسود الذي ظهر كغيمة، لا أنتبه للطريق، أسير خلفها معتمدًا على مغناطيسها الجاذب. كان الطريق غريبًا، متعرجًا، الأشجار تحفّه من الجانبين. تجنبنا الطريق الأقصر، أضاءت مصباحها الخلفي أكثر من مرة بإصرار كما لو أنها تحذرني، سرنا في الطريق الطويل، وظننت أنه نوع من زيادة الغواية، ولم يكن أكثر من طريق آمن.

الواحدة صباحًا وثلاث ثوان

كرهتْ كلمة زواج، وجهها يتغضن عند ذكر الكلمة، تصمت ولا تجيب طلبي، تشعل سيجارة أنثوية رفيعة، وتردد على أذني أن شرطها كان واضحًا منذ البداية، لن تنضم إلى منظومة زواج، لا ارتباط طويل الأمد، لا شيء يتخطى اليوم، أما الغد فهو يوم آخر مجهول وليبقى على مجهوليته.

كان الوضع مقلوبًا، والصورة النمطية المعروفة معكوسة، شأنها شأن المرآة التي أقف أمامها كلما زرتها، مرآة طويلة حتى السقف، بعرض نصف متر، مؤطرة بأشجار تشبه ما مررنا بها وكأنها نحتت منها، لا أتوقف أمام التشابه كثيرًا، أركز في يدي اليسرى المزينة بساعة هديتها، تتحول يدي اليسرى إلى يمنى، ويدي اليمنى إلى يسرى، عيني صاحبة الجفن المبطن البارز، تحل محل شقيقتها قليلة الانتفاخ، كنت أغرق في المرآة؛ لأنها لا تحاكي الواقع، تقلب الميزان، مثلما تسعى هي لقلبه، رجل يتمسك بمنظومة الزواج وامرأة ترفضها... عجيب!

تضحك كلما أخبرتها بالجملة، وتبتل عيونها بمسحة خفيفة من الدموع، عرفت بعد سنوات أنها نبتة منظومة مشوهة، لم تخبرني التفاصيل، اكتفت أن قالت إن من لم يعرف الأمان يصعب عليه منحه، ومن لم يمنح الحب يتعثر في طريقه، لا يمكن إصلاح نبات فاسد، هكذا تردد كل مرة، أبتلع جملة عدم قدرتها على الحب، وأجيبها أن الأمور لا تكون بتلك القسوة، ولا تجيب!

الواحدة صباحًا وأربع ثوان

أخترق الطريق المباشر، أتجاهل الطريق ناحية اليمين، الطريق الأطول الأكثر أمنًا، أقرر أن الأمن صفة لا أحتاجها في تلك اللحظة، فمن أحتفظ لها بمزية أن أحفظ سلامتي؛ تلفظني. في كل مرة تلفظني وأعود، تقرر في نوبات نزق طفولي أنها اكتفت، تغلق الباب بوجهي. أقرر أني لن أعود، «سآخذ نصيبي من الحظ، السيئ منه والجيد».

كانت جملتها التي ترددها دومًا كلما جلسنا متقابلين في ليالي الصيف الحارة، وقد تخففنا من ملابسنا، وجلسنا بالحديقة المنعزلة المنكشفة على الطريق المختصر الخطر، ترددها وهي ترمي النرد باليمنى، وتنفث دخان سيجارتها التي علقت بأصابع يدها اليسرى، كنت أدقق في تفاصيلها كطفل صغير لم ير امرأة من قبل، وكانت تعلم، تضحك بصفاء وهي تعبث بشعري كما لو أنها تعبث بشعر طفل صغير حطم نافذتها بالكرة، وسامحته.

أتخبط، أرمي النرد بقوة، تخرج أحد مكعباته عن الإطار، تنفر، تقرر التمرد على اليد التي توشك على تحطيمه، أعتقد أن النرد يشبهني، أو أني أشبهه، أنا مكعب مطبوع بستة أوجه من النقاط، السيئ فيها والجيد، الجيد رقم ستة، والسيئ واحد.

أنا واحد تمرد على رقعتها التي تلاعبت بي فوق سطحها، وأخوض الطريق الآخر.

الواحدة صباحًا وخمس ثوان

الطريق المختصر لا يذهب إلى الجنة، رغم اصطفاف أشجاره كالطريق الآمن، الأشجار بكثرتها موحشة، يزيد وحشتها الليل الكئيب، ألاحظ السماء التي امتزج سوادها برمادية تنبئ بمطر غزير، لا نجمة واحدة تجرؤ على الخروج في مثل هذا الطقس لتضيء طريقي، ازداد غضبي، لا سيارتها خلفي، ولا نجوم ترشدني، وطريق يدفعني للتعثر.

في علاقتنا كنت أتعثر، أسير بخطوات حذرة نحوها، تنتهج معي سياسة حرب من كر وفر، في أيام تضحك، تركض، تغني، تلتقط الصور، تمشط شعرها الأحمر الطويل بعناية، ترسم رسومات سريالية غير مفهومة منغمسة في ألوان مبهجة، وأيام تغيم كسماء شتوية، تدخن بشراهة، تنحر شعرها بمقص حاد، تضع ساقًا فوق أخرى، وترخي جسدها كله في حضن مقعدها الوثير، مقعدها.. لا حضني.

الواحدة صباحًا وست ثوان

أقترب من القاع، لا أرى فرقًا بين قاع النهر، وقاع نفسي، كلاهما مظلم، كلاهما غرق، أشعر ببعض الندم، ماذا لو اخترت الطريق الآمن وودعت جنونها، ربما كان بإمكان العاصفة المتكررة أن تهدأ، فأعود، أو لا أعود، ربما لو خرجت من هنا حيًّا لا أعود.. لن أعود.

يدي، ساقي، ملامح وجهي، بشرتي كلها تتجمد، الماء الذي استقبلني بوهم الدفء أصبح قاسيًا، كما لو أنه رحم يتأهب لطردي، لكن الطرد لا يكون إلى الجسر الذي ذلت سيارتي من فوقه، وحطمت سوره الخشبي الضعيف، هو طرد للأسفل، للعتمة، لظلمة لن تتبدد. ستبحث عني بعدما تمر عاصفتها، ستبحث في كل مكان، ولن تبحث في النهر المجاور لمنزلها، لن تنتبه إلى الخشب المحطم، لأنها لن تمر من هنا، لأنها ستظن أنني رجل آمن كما علمتني، كما جرعتني قواعدها، حتى إنني في قمة غضبي سأتتبع خطواتها، ستحاول استدعائي بالتخاطر كما تردد كلما ظهرت أمامها «فكرتُ بك فظهرت كعفريت صغير».

ستشحذ حواسها كلها لتستجلبني، ستشعل الشمع المعطر الذي أحبه أملًا في أن تجذبني رائحته وأنا على بعد أميال، وستفشل لأن حواسي تتعطل.

امتلأت أذني بالماء، الضغط العنيف داخلها مؤلم يمزقها، حاسة الشم مكبلة بقدر الماء النافذ إلى أنفي، أتذوق ملوحة غير موجودة، ربما هي ملوحة دموعي، ربما انهيار في وحدة التذوق داخلي فترسم أوهامًا، ربما عقلي من صنع هذا الوهم.

تضيع الرؤية من أمامي، أفلت النفس الأخير بغير رغبة مني، أراقبه بآخر خيط رؤية بعيني، أراقبه يصعد إلى أعلى، أعلى، أعلى، تكبر الفقاعة في رحلة صعودها، أرسل معها طلب نجدتي، أدفعه خلفها، فيلتحم بها كالتحام بويضة وحيوان منوي، أنتظر أن يرتطم بالسطح لتخرج صرختي المحبوسة فجأة، فتنير السماء حتى ترى الضوء من منزلها وتنقذني. ترتطم الفقاعة بالسطح، لا شيء، أغمض عيني، تتعطل الحاسة الأخيرة، تغرق، أستسلم لسبات لا استيقاظ بعده.

ورقة صفراء

في اللحظة التي صفع فيها زوجته، أعتمت عينه اليمنى.

لم يعرف ما علاقة يده اليمنى بعينه، ولا أي عصب يربطهما معًا، كل ما عرفه أنه كان ثائرًا، في حالة فوران قصوى، وانفلات لحبل أعصابه الرفيع الذي قطعته زوجته بفعلتها.

ترك منذ خمسة أيام إحدى الملحوظات على مكتبه، ملحوظة عن هيكل رواية، كان يرتبها برأسه، تركها ترتع داخله حتى صعب نومه واستيقاظه، وأكله وشربه، كانت صداعًا حقيقيًّا يتشكل في هيئة آدمية، هيئته. قرر لحظتها أن عليه لفظ الفكرة، أن يضعها كما اعتاد فوق ورقة ملحوظات صفراء. الأصفر يلفت انتباهه، يعيد إليه يقظته، أو يصل بها إلى أعلى مدى، لا يعرف، المهم أنه كتبها فوق ورقة صفراء صغيرة على شكل قلب، قلب أصفر مليء بملحوظة دموية حمراء. أراد أن يكتب على ظهر الورقة عنوانًا كعبث يجعله يتذكرها في احتمال أن تسقط من ذاكرته، لكن باستعجاله ترك الفكرة جانبًا.

كتب ملحوظته، وألصق الورقة بحافة المكتب، المكان غير اعتيادي لوضع ورقة هامة، لكنه كان منشغلًا بأمر آخر، وقرر أن يعيد ترتيبها عندما يعود، سيفعل أشياء عديدة في الوقت الملائم، هكذا حدث نفسه.

مر يومان، ولم يجلس إلى مكتبه، انشغل بعمل بعيد عن الكتابة، وقريب منها، أن تكون محاضرًا بالجامعة هو قطعة من عذاب، اعترف لنفسه أنه دومًا بعد نهاية كل محاضرة يشعر بالملل، ويقرر في كل مرة أن عليه الاستقالة والتفرغ التام للكتابة، لأن الجامعة تهوى القولبة، وهو بالكتابة سعى لتحطيم القالب، وفي كل مرة أيضًا يتراجع عن الفكرة؛ لأن الكتابة في ذاتها لا تدر دخلًا ماديًّا مناسبًا، وإن كانت سببًا أساسيًّا في سعادة أمثاله، فهي لا تشبع بطنًا جائعًا كبطن أطفاله وزوجته.

تذكر وهو يضع على المكتب أوراقًا تخص طلابه الورقة الصفراء، نسي ما بداخلها، كان يذكره بشكل ضبابي، وأراد في تلك اللحظة أن يعيد تثبيت الفكرة برأسه، حتى تتشعب بخيوطها كعنكبوت، فتأسره وتجبره على كتابتها قبل أن تفتر رغبته وينسى، لكن الورقة اختفت.

بحث في كل مكان، في الأدراج، فوق رفوف المكتبة، في سلة المهملات التي احتضنت بعثرته، فوق المرآة الطويلة قرب النافذة، النافذة نفسها، لا شيء أصفر، الألوان كلها موجودة بحضور قوي، إلا هو.

نادى زوجته، ناداها وهو يخشى أن تكون اقتحمت الغرفة التي لا يسمح لأحد بدخولها.

وقفتْ أمامه، وقد علقت حول رقبتها مريول المطبخ، وأمسكت بمنشفة صغيرة تجفف يدها. سألها برفق عن الورقة لتجيبه ببساطة.

- رميتها.

- لماذا؟

- كانت غير مهمة.

- من قرر عدم أهميتها؟

- أنا، لم تكن أكثر من فوضى مضافة لفوضاك هذه.

قالتها وهي تشير بمنشفتها إلى كتبه.

تبدلت زوجته عن بداية زواجهما، عن بداية تعارفهما كله، قابلها في إحدى المكتبات، كبداية تقليدية لرجل هاوٍ للكتابة يجمع الكتب التي تفيده في مشروعه المستقبلي، وقفتْ أمام أحد الرفوف في حيرة خالصة،

تفاضل بين رواية الحرافيش وأفراح القبة، ولا تدري أيهما تختار، بالنسبة لشخص يتحيز لأفراح القبة بكل خلية فيه، ادعى أنه بحاجة إلى الرواية، التقطها بابتسامة تمنى أن تكون عفوية إلى جانب جملة خرجت بألفة لجذب خيط حديث بينهما

- كواليس المسرح وحياة من فيها كصندوق بندورا.

كانت ابتسامتها مرتبكة، وكان ارتباكها لذيذًا، تبادلا كلمات سريعة، وتبادلا معها أرقام الهواتف، سهرا ليلة طويلة على تطبيق الواتساب يرسل كل منهما صور مكتبته للآخر، مكتبته الضخمة أمام مكتبتها الرقيقة البسيطة التي تبنيها بشكل متأنٍّ، والتي أخبرها بعد عام واحد ألا داعي لها، أن بإمكانها الاستحواذ على مكتبته ولن يمانع، وكانت سعيدة بذلك الطلب المبطن حيث ضحكت بطفولية لا ينساها وهي تومئ بخجل. في تلك اللحظة، وهو يسمع نبرتها الفاترة يسأل نفسه، متى وكيف اختزل كل هذا الحديث في كلمة مؤلمة كفوضى.

- هذه مساحتي، مثلما اخترت أنت أن يكون المطبخ مساحتك.

انفجرت فجأة كبركان كُشطت فوهته:

- لم أختر تلك المساحة، لكنها فرضت عليّ.

- من فرضها؟ أنا؟

- بل الزواج.

- ننفصل إذن لتتحرري من القهر!

- كان أفضل لو أجبت بأن تحضر خادمة، أو نتشارك المسؤولية.

- لدي مسؤوليات أخرى.

- لا تسمي فقاعة الفشل هذه مسؤولية.

في أيام الخطبة كان بينهما اتفاق واضح، لا ذكر لكلمة فشل في بيتهما الصغير، لتستبدل الكلمة، لتكون فرصة نجاح لم تتم، تعسر مفاجئ، سعادة غير مكتملة، تجربة لم تنضج، لتستبدل باسم حتى ولو كان دراكولا، فقط على الكلمة ألا تنطق في البيت، لأنها تجمع كل طاقة سلبية ومعتمة، فتشكل لنفسها مكانًا بينهما، بالضبط كمن لا يجب ذكر اسمه.

عندما نطقتها لم يشعر بيده وهي تتحرك صوب خدها، أقسم لنفسه إنه لم يعتزم أبدًا صفعها، ولم يكن يومًا رجلًا متسرعًا في ردود فعله، أو من مؤيدي تعنيف المرأة، وأنه اشمئز من هذا الفعل، بل وكرهه ككراهيته لكلمة الفشل.

ما حدث له كان انتقامًا إلهيًّا نزل فوق رأسه فجأة، أو أن تلك العين كانت بانتظار حالة الانفعال الحادة التي وصلت لحافتها لتتداعى، المهم أن التجمد غلفهما، مع صمت ثقيل يجثم فوق صدريهما، هي من صدمة الصفعة، وهو من صدمة العمى.

نطقتْ فجأة:

- طلقني.

وأجابها:

- لا أرى بعيني اليمنى.

توقع أنها لن تهتم، أن قسوة الصفعة ستنتقل إلى قلبها لتحوله إلى صخرة صلدة لا تلين، وقفتْ على حالها لثوان ثم بتردد رفعت يدها تجاه يده التي وضعها فوق عينه تزيحها، ظنتْ في البداية أنه يخدعها، يتهرب من فعلته الشنعاء بادعاء المرض المفاجئ.

- أغمض عينك اليسرى.

وفعل، لم يكن الطلب بداعي فحص عينه، ولكن للتأكد من صدق ادعائه. كان يسمع حفيفًا كريشة ينبئه بحركة يدها في الهواء، ويشعر بالهواء نفسه في لحظات الحركة تدفعه نحوه بغير وعي منها. أراد أن يفتح عينه، تلك العتمة لا تناسبنه، هو رجل نهاري بكل خلية فيه، أما الليل فيحوله إلى نهار بمصابيح تنشر ضوءًا أبيض كنهار مزيف، تماسك حتى طلبت منه فتح عينه اليسرى، قبل أن تقرر بحزم، وبصوت متجرد من المشاعر رغم أفعالها المفعمة بها

- سنذهب إلى المشفى الآن، ربما تكون جلطة.

لم يعلق، جلس إلى جوارها بالتاكسي في حالة صمت متوتر، حتى إنه أصاب السائق الذي تبادل بينهما نظرات توحي بفهم الخلاف، وقد قرر ألا يلقي موعظة عامة ربما تصيب هدف الشجار والتباعد، أو حتى يفتح الراديو كي لا يمزج التوتر بالعصبية.

أكد الطبيب أن عينه سليمة، بكل خير، فحص قاع العين، قياس النظر، حاول حثه على معرفة الإشارات على الحائط وفشل.

عليه أن يعترف أن الكلمة موجودة الآن داخل عينه، أنها لم تكن أكثر من كلمة عاملها بكل قدسية حتى، ودنسها مقبول في حياتهما. فحصه الطبيب مجددًا، وأخيرًا اقترح زيارة طبيب مخ وأعصاب، ذهبا، قابلا الطبيب، فحصه، طلب أشعة معينة، جاءت نتيجتها سليمة، أثبتت أنه معافى رغم أنه لا يرى.

- ربما ضغط نفسي.

سقطت الكلمة من فمه وهو يخط بعض الفيتامينات فوق ورقته البيضاء، والتي مزقها هو بمجرد خروجه من عيادته.

جلسا في المنزل بعد يوم شاق، جلسا في غرفة المكتب التي حرمها عليها، وكأنه يسمح لها باقتحامه علها تغفر له، ورغم ما فعل ظلت متمسكة بالصمت، واخترقه وهو يعتذر، يبرر، يتسلق فوق كل التفسيرات الممكنة، ويتهمها بشكل مبطن باستفزازه. ظلت صامتة، جامدة كالمقعد الصغير المجاور للباب الذي اختارته بعناية حتى لا تتورط بالغرفة كما لو أنها لعنتها، ذيل كل الكلمات التي خرجت من فمه بجملة اعتذار واضحة

- لم يكن عليّ أن أفعل ما فعلت.

- طلقني.

ظن أن الطلب مجرد لحظة هوجاء ستزول بالحركة والانشغال بحالته الغريبة، إلا أن إصرارها فاجأه:

- طلقني وسيرتد إليك بصرك.

- إذن أنت الساحرة التي ألقت عليّ اللعنة.

- الهراء الذي تكتبه في كتبك لا يليق بموقف إهانة حقيقي.

- لتبقي، لتكون صفحة جديدة، ونستعيد نظري معًا.

- هو نظرك أنت، ما الذي يجعلني أنتظره؟

- العِشرة.

- تمزقت منذ ساعات.

نطقتها وأشارت إلى خدها، نهضت نحو غرفتهما، لملمت ملابسها بأكبر حقيبة بالغرفة في إشارة قوية واضحة أنها لن تترك خلفها ما يعيدها إلى هذا البيت، لأنها لن تهدأ لتخلق أسبابًا واهية للعودة. قبل أن تذهب التفتت نحوه بطريقة لم يكتبها أبدًا في رواية، طريقة ممتلئة بالحسرة والخوف والدهشة والحزن ابتلعتها كلها ورحلت.

لم يتحرك من مقعده كما لو أنه التصق به، كان يهضم القرار المصيري الذي اتخذ منذ ثوان، يحاول استيعاب كلمة طلاق، يلوكها بفمه ولا يستسيغها، كانت مُرة، كلمة مُرة كقطعة صبار. شعر برغبة مفاجئة في التقيؤ، ولم يفهم أهي ثورة القولون العصبي، أم أنها رغبة قوية في التخلص من اليوم، بسرعة جذب سلة المهملات الموضوعة إلى جوار المكتب، أفرغ معدته بها، وعندما انتهى، كانت ورقة ملاحظاته الصفراء ملتصقة بجدار السلة، ساكنة فيها!

علة الكابوس

في الصباح، تقيأت كابوسًا زارني في الليل. تقيأته فوق سريري مباشرة، كان خطأ مني، من المفترض أن ألفظه في سلة القمامة بجوار الفراش، لكنه كان قاسيًا، ولم أصبر.

اعتدت منذ صغري أن ألفظ الكوابيس بتلك الطريقة، بعدما امتنعت أسرتي عن تفسير الخوف الذي يخنقني فيه، عائلتي زاهدة في الكلام، تمارس فضيلة الصمت منذ ولدتُ، ولم أفهم ذلك إلا عندما كبرت.

في طفولتي، كنت كلما حلمت بمنام جميل، وقصصته عليهم ظلوا على صمتهم يحدقون بملامحي بحب، وكلما حكيت كابوسًا بكوا، عائلتي تكره الكوابيس بقدر كراهيتها للكلام. ظننت في البداية أنني منبوذ، نجتمع على المائدة بعدما أعود من المدرسة، أحكي اليوم كله بتفاصيله بحماسة زائدة، ولا ردة فعل، تبادلني أدوات المائدة الحديث بالارتطام في الأطباق وصنع صخب يهشم الصمت.

بكيت في إحدى المرات، بكيت وسقطت دموعي في الحساء، فتركت أسرتي الطعام، وشملوني بنظرة طويلة كما لو أنها مواساة، وكل ما أردته أن أستمع إلى كلمة «معلش» التافهة من حناجرهم المصمتة.

كبرت وأنا أكره الحديث خارج البيت، وأحبه داخله، كنت صامتًا أغلب الوقت، لا أتفاعل مع زملائي بالمدرسة أو الجامعة إلا فيما ندر، وأعود إلى بيتي راكضًا، وكأن بعد كل تلك السنوات سيتغير صمتهم، وستزال طبقة الصدأ التي تكونت في أفواههم، وأسمع أصواتهم التي لا أعرفها، وكل مرة تتهشم أحلامي.

نهضتُ من سريري وأنا أتذوق ما خلفه الكابوس في فمي، كان أشد مرارة عن سابقه، أصبحت قادرًا على تذكر الكوابيس من طعمها، أول كابوس زارني كنت بالجامعة، صرحت زميلة لي بإعجابها، يومها لم أرد، كنت أتعجب من إعجابها بشخص لا تعلم عنه شيئًا، ولم يحاول فتح حديث معها حتى يسمح لها، ويسمح لنفسه بفرصة تعارف. تركتها وعدت إلى البيت دون كلمة، وأرسلت هي رسالة بكلمة واحدة «أتفهمك» كيف تتفهم شيئًا لم تخُضه؟ أتعرف عائلتي الزاهدة في الكلام، أتعرف عائلة تشبهها، أتملك شخصًا واحدًا اختار بكل إرادته الحرة ألا يتحدث؟ لا أظن.

يومها عدت وجلست إلى المائدة، ولأول مرة لا أثرثر، كنت غريبًا وسط عائلتي رغم أنني أمارس ما يجعلني قطعة منهم، لكنه الاعتياد الذي جعل فعلي نشازًا، في الليلة نفسها حلمت بها، كنا بالمكان نفسه، نرتدي الملابس نفسها، وتقول الكلام نفسه، والعجيب أنني أجيبها، بادلتها الاعتراف، ابتسمتْ، اقتربت منها ولم تتحرك، أغمضتُ عيني، قبلتها، كانت شفتها مُرة قاسية، فتحت عيني وجدت فمها موصدًا بقفل صدئ، استيقظت فزعًا، وأفرغت كابوسي الأول على الأرض، هربت خارج الغرفة محاولًا تفادي الوقوع فيه كما لو أنه ثقب أسود سيمتصني بلا عودة، كانت عائلتي مجتمعة أمام فيلم، الفيلم كتم صوته، وأصبح الأداء هو البطل الموحد بين روايات مختلفة في رؤوسهم، أردت أن أحكي، أن تحتضنني أمي كصغير لتفسر لي بفطرتها ما أفشل في فهمه، أن يضحك أبي ويسخر مني، ويخبرني أنها أولى علامات البلوغ، أن تغار ابنة عمي التي تعيش معنا أن هناك أخرى ستشاركها قلبي، أن يسبني جدي، أن يغمز عمي بعينه في استفزاز لزج، ولم يحدث شيء، سقطت في سكون طويل أهدئ أنفاسي الراكضة، بعدها عدت إلى غرفتي، لملمت البقايا في سلة القمامة، وأنا أخشى أن تظهر الحكاية من الفتات، كنت خائفًا، حاولت النوم، ولم أنم.

ظهرت فجأة رائحة لفمي، وكانت كريهة، الكوابيس لا تترك فرصة لنسيم عطر، جربت أنواعًا مختلفة من معجون الأسنان، المضمضة، الخيوط الطبية، مضغت العلكة، وأرواق النعناع، ومسمار القرنفل، زرت أطباء الأسنان، والأمراض الباطنية، رافقني معطر الفم كصديق، وفشلت كل المحاولات، وجدت أنه من الأنسب محاولة التقليل من الحديث القليل في الأصل، أن أكتفي بالإيماءات، بالإشارة إلى حلقي في تعب، بوضع كمامة إذا لزم الأمر.

فقدت زميلتي الأمل، كان تفهمها قصير المدى، نبذتني ككلب أجرب، وتقبلتُ انتهاء القصة التي لم تكن لتبدأ أبدًا في شجاعة.

أنهيت الجامعة، قلّ كلامي بالخارج، ازدادت كوابيسي بالبيت، ورافقها صمت، لم أبحث عن عمل بعد التخرج، كانت عائلتي تملك من المال ما يجعلها تستغني في راحة عن العمل، ما يجعلها تتجنب ما تكره بضمير مرتاح، حذوت حذوهم، أستيقظ في الأيام الهادئة، أقضي اليوم جالسًا بالشرفة، أستمع إلى ضوضاء الشارع، أحاول فتح فمي للكلام، فأتذكر رائحة فمي، أخشى أن تنتشر في الهواء، ويعرف الناس أنني مصدرها، فأطبق فمي بإحكام، وفي المساء، بعد منتصف الليل، أخرج للتمشية بمفردي، أسير بالشوارع الجرداء، المعتمة والتي لا يحبها أحد، يسير إلى جواري كلب أو كلبين، كانا قبلها بدقائق ينبحان بهستيريا، وبعدها يهدآن تمامًا كأن عدوى الصمت قد نقلت إليهما.

عرفت أن ما يحدث لي مع الكوابيس، لم يكن حالة فردية، عندما عدت في إحدى الليالي، ووجدت أمي منكبة على أرض غرفتها، تجمع بقايا كابوسها ووجهها دامع مرتعب، لم تشعر بوجودي، وتركت غفلتها كما هي وأنا أختبئ بمكان مظلم أدقق في القصة المبتورة، رأيت أصابع طويلة تهرس جسدها، كنت أحفظ شكل أصابع يد أبي، تلك الأصابع لم تشبهها، بدت كأصابع متعدية، سارقة، وأمي الضحية التي لم تنس. ليلتها فهمت، كل تلك القيود التي فرضتها عائلتي على نفسها، كل تلك الأفواه المطبقة على روائحها الكريهة لذكرى سيئة، كل ذلك الصمت، لم يكن لي وحدي، وإنما هي شراكة الماضي.

ولكن ما الذي يجعلني مثلهم وأنا لم أحمل ثقل ذكرى سوداء فوق أكتافي؟

سألت السؤال، وأنا أتسلل إلى غرفتي، تمددت على السرير، وغرقت في النوم بعدما فشلت في الوصول إلى إجابة، ليحضر كابوس آخر، كنت أركض فيه من أفواه مغلقة، أفواه كبيرة معلقة فوق أرجل بشرية، لا وجوه، لا عيون، لا أجساد، فقط فم مطبق كبير، رغم إطباقه إلا أنه يوشك على ابتلاعي، ولمرة أخرى أستيقظ، وألفظ خوفي الذي أبى أن يبقى مجهولًا.

حاولت البحث عن صاحب اليد التي أخرست أمي، وفشلت، كانت اليد في الكابوس متعفنة، ميتة، ولم يكن ممكنًا الانتقام من ميت.

في الصباح، لفظت كابوسي على السرير، توجهت لأمي، وقفت أمامها أنظر في عينيها مباشرة، أحدثها بالنظرة أنني أعرف. احتضنتني وبكت، بكت دون صوت، وفهمت في تلك اللحظة بالذات أنني أنتمي إلى تلك العائلة، وأن ذاكرتي القاتمة التي أبحث عنها، لن تكون إلا ذاكرة عائلتي المكدسة بالألم، راقبت وجوههم جميعًا في لحظات نومهم، يتقطب جبين كل واحد منهم عند لحظة معينة، يتململ، يتعرق، وقبل لحظة الاستيقاظ بثوانٍ كنت أختفي بهدوء، أراقب الكوابيس المراقة والدموع.

ابنة عمي كانت تئن، صوت غير صوتي أسمعه، كانت منخفضًا خائفًا، وكأنه مثلي، انطلق في وقت ما، ثم قلّت سرعته حتى انزوى. راقبتها لأيام، لأكتشف أنها تراقبني، كنا كلصّين يسرق كل منا نظرة من الآخر، كنا متشابهين في الفضول والبحث.

في أحد المساءات، تزوجتُ ابنة عمي، عرضت الأمر بكلمات مختصرة مكتوبة، فأومأت بعد أن رمتني بنظرة طويلة معاتبة تقول الكثير، تقول إنني تأخرت في كشف العلة ومعرفة العائلة، وبادلتها نظرة طويلة تمنيت أن يكون كابوسي مرسومًا فيها.

قوة الصوت

أحيانًا، يفقد المرء صوته طواعية، لم يكن لحالة مرضية عضوية، ولا حالة اكتئاب حادة، أو ميول انتحارية، أو تعرض لصدمة، بل فقدان طوعي، تنازل مسالم مثلما فعلت. اتخذت قراري في ليلة شتوية طويلة، انقطع فيها التيار الكهربي، كنت ساهدًا بعد علاقة حب فاشلة معها، كان الأمر بلا رغبة من كلينا.

حملقت في السقف، أما هي زفرت زفرة ارتياح طويلة تتخلص بها من ثقل وجودي معها بالغرفة نفسها، ونامت.

سهرت أتابع طرقات المطر على الزجاج، تناسينا إغلاق الشباك الخشبي، وقررت بعناد لا أعرف سببه أنني لن أتحرك إنشًا واحدًا لإغلاقه، وجدت المبرر في جمال البرق، وهو يسطع بطريقة مفاجئة تعيد إليّ انتباهي من الشرود في اللاشيء.

وضعت يديّ أسفل رأسي أنصت إلى المطر، وفي ضربة البرق التالية كنت قد اتخذت قراري، سأمتنع عن الكلام، سأصوم عنه كما فعل زكريا، ألم يتبع فعله بشارة تمناها لسنوات، ولكن ما البشارة التي أنتظرها ولم تحضر؟ فكرت، الأطفال؟ العمل؟ المال؟ السفر إلى الخارج؟ لا شيء. كنت أسير في تيار الحياة بلا مقاومة ضعيفة، أظن أن سمكة السلمون لديها رغبة أفضل مني للحياة، وهي تقفز عكس التيار لتنجو، أما أنا فجبان، لا أملك الشجاعة لتحدي التيار الذي يسير فيه الجميع.

التحقت بمدرسة ابتدائية لم أحبها، ذاكرت باجتهاد لأن والداي أرادا ذلك، دخلت القسم العلمي في الثانوية العامة لأنهما تمنيا طبيبًا، وأصبحت ما تمنياه بلا رغبة، والنتيجة.. طبيب فاشل في مجاله، يسير بالقدر المعروف في الطب، يتحاشى الحالات الصعبة، ويحيلها إلى طبيب آخر، فيعتقد الآخر أنها مجاملة من طبيب لطبيب، ولا يعرف الحقيقة.

ابتلعت ريقي الجاف، لمست شفاهي المتيبسة، كان غريبًا أن أشعر بكل هذا القدر من العطش في ليلة شتوية باردة كهذه، نهضت إلى المطبخ، تجرعت كوبين من الماء دفعة واحدة، وأنا ألمح ظلًا في شباك المطبخ الزجاجي، ظننته زوجتي تبعتني للعطش ذاته، أو لتوبيخي على ترك النافذة المفتوحة؛ ليتبين أنه لم يكن أكثر من خدعة عقلية لا أكثر، عدت إلى الغرفة، وأنا أحمل الكوب الثالث، زوجتي نائمة في سلام، والمطر لا يتوقف، تدثرت بغطاء منفصل عنها، ومع ضربة البرق الأخيرة ابتلعت الماء، وصوتي.. ونمت.

في العاشرة صباحًا دلفت إلى المطبخ، كان يوم إجازتي، وكانت هناك تعد الفطور. كوب من الشاي، بيضة مسلوقة، وخبز أعيد تسخينه، ولم يخف ذلك كونه بائتًا. روتين تنتهجه منذ زواجنا، منذ تسع سنوات لم تغيره مرة، لم أحظ بفطور الجمعة الذي ينتظره الجميع كل أسبوع، الفول والطعمية والمخلل، أشياء تفقد رونقها في منتصف الأسبوع، آكلها بلا شهية رغم اشتياقي لها؛ لأن طريقة زملائي في تناولها يخبرني أنهم امتلؤوا منها بإفطار الجمعة الذي أتمناه.

همهمتْ بصباح الخير، وفي المقابل لم أرد الهمهمة، أطبقت فمي بقوة كما قررت، عندما استيقظت اعتقدت أنني سأنسى قراري الطفولي الذي اتخذته في ليلة شتاء مظلمة، لكني تمسكت به أكثر، وأنا أشاهد صفاء السماء، وأراقب الطير الذي فتح جناحيه كما لو أنه يصفق لي.

نظرتْ نحوي بتعجب، لم يكن بيننا خصام، لم نتشاجر، لم تحدّث حماتها بطريقة سيئة، أحضرتْ حاجيات المنزل، عنفتْ ابننا الكبير على درجاته المتدنية بامتحان الشهر كما طلبتُ. لا شيء يدعو للصمت.

أشرتُ بأصبعي إلى حلقي وأنا أرسم فوق وجهي تعبيرًا متألمًا، هزت رأسها في تفهم، ستظن الآن أن الأنفلونزا واحتقان الحلق قد نالا مني، وربما يزيد هاجسها أنني أصبت بالكورونا، وستخشى على نفسها من العدوى. ربما أفاجأ بها، وقد وضعت قناعًا طبيًّا يخفي ملامح وجهها في خطوة احترازية.

جلستُ إلى الطاولة، تأملت الشاي الأسود والخبز الذي حمصته على شعلة الموقد، أخرجت هاتفي وكتبت ملحوظة، ورفعتها لتقرأها:

- أنا عاوز فول.

رفعت حاجبيها في تعجب، طلبي غريب، مفاجئ، وغير موجود، فما الذي يجعلها تحتفظ بعلب الفول الجاهزة ونحن لا نأكله! أجابت بذات الهمهمة.

- مفيش.

- بس أنا عاوزه.

- كُل في الشغل.

- النهاردة الجمعة، عاوز فول.

زفرت بضيق، ونظرت إلى السقف وكأنها تقول توقف عن طلباتك الطفولية.

غلفنا الصمت لثوان، لم يبدد أجزاءه إلا كسر قشرة البيضة المسلوقة وإزالتها، ووضعها أمامي كتقرير لأمر واقع لن يتغير.

لم أمسّها، كنت في العادة ألتهمها، أبتلعها للدقة دون الشعور بطعمها، شيء ينزلق من جوفي، يسقط في ارتطام عنيف -هكذا أتخيله- بمعدتي، ترقد هناك عدة ساعات تشعرني بالشبع ثم تتبخر، لا شيء أكثر، بيضة بلا ذاكرة. أحاول استدعاء أي ذكرى مرتبطة بالإفطار ولا أجد، صفحة بيضاء غير ملطخة بحدث، بيضاء حد الرغبة في رميها بسلة قمامة.

بإصرار أنهت إفطارها ونهضت، تركتني على وضعي الصامت معتقدة أن حالتي ستتبدل عندما أرتشف الشاي الدافئ وبعض الأسبرين، وأنني سأعود إلى مزاجي الثابت الذي لم يتغير منذ سنوات.

الظل ظهر مرة أخرى، تلك المرة بجلاء، شيء يشبهني بشفافية أكبر، يجلس بمقعد زوجتي.

للغرابة لم أفزع، عادة لا أفزع قبل أن أتبيّن سبب فزعي، أتفحص المصدر بدقة وسرعة، أبحث عن أماكن الضعف حتى أجدها فلا أرتعد مثل من حولي.

ابتسم الظل فجأة قبل أن يقول مقلدًا صوتي:

- صباح الخير.

قررت أن أجيبه، لا تجد ظلًا ودودًا كل يوم، لا تجد كسرًا لروتين الصباح كل يوم، فتحت فمي، جهزت الرد في رأسي، رأيته بعين خيالي يسير بالأعصاب في انزلاق مرح، حتى يصل إلى لساني، ويقف فوقه في استعداد للفظه، لكن لم يحدث شيء، تعطل الرد في طريقه، وأصبحت أنا كسمكة تفتح فمها، وتغلقه لا أكثر.

كان موقفي محرجًا أمام ظلي الذي يشبهني، ابتسم الظل مرة أخرى قبل أن يعلن.

- لا تحاول استدعائي، أنا هنا بإرادة حرة بعيدة عن نفوذك.

صوتي يجلس أمامي بكل ثبات وثقة، ويخبرني ضمنيًّا أنه لن يعود، تخيلت بذعر لو أن كل حواسي وأعضائي هكذا، تقرر بناء على جملة عارضة مني عن تعب مفاجئ، فتحمل نفسها وتذهب حفاظًا على كرامتها، سأتهلهل، سأصبح قطعًا متفرقة دون الحاجة إلى قاتل متسلسل ليبترني ويلقيني في مكبات نفايات مختلفة.

- مضحك الإنسان، يظن أنه يملك كل ما لا يملكه!

لصوتي عقله الخاص أيضًا، لم أفكر بهذه الطريقة من قبل، حتى وأنا أدرس التشريح بكل تفاصيله، لم أحاول تخيل الأمر، كنت فقط أتتبع بداية العصب والعضو ونهايته، اسمه الإنجليزي الطويل المعقد، ولا شيء آخر.

- ما الذي جعلك تظن أنك أوقفتني بإرادتك؟ تولد صامتًا حتى أقرر الظهور.

تدحرج عقلي إلى لطمة المؤخرة التي ينالها كل الخارجين حديثًا إلى الحياة، أردت أن أخبره أن القرار ينطلق منا بتلك اللطمة، فلم يمهلني.

- حتى تلك اللطمة التي تغذي غرورك، لا يُستجاب لها إلا بإرادة منا، بنفس تلك الإرادة اختفيت.

تجمعت الدموع بعيني، تخيلت أن شبيهي وصوتي يتحول ماردًا ضخمًا، يوقف قراري الوحيد بالسير مع أسراب السلمون، تخيلته يتحول إلى أبي الذي فرض كل شيء وانصعت إليه، ضممت يدي إلى صدري بشكل متوسل، تمنيت أن يقرأ أفكاري كما فعل منذ قليل، يترجم اعتذاري عن قراري غير المسؤول، وطلباتي التافهة.

ابتسم الصوت، سمعت ضحكتي فيه، ورأيته يحرك رأسه بعدم تصديق لطفوليتي الحاضرة، رمقني للحظات صامتة قبل أن يهمس.

- احذر القرارات الغبية.

نهضت من مكاني، نهض هو الآخر، فاستطالت قامته في رد مناقض لقوله السابق، يتعامل كما لو أنه مرآتي، وفي الوقت نفسه يعلن أنه كائن مستقل بنفسه.

أردت أن أنادي زوجتي، أن أعود إلى ليلتي السابقة، وأصفع وجهي صفعة قوية لأتخلى عن قراري المجنون، أن آكل البيض المسلوق منزوع الطعم، وأشرب الشاي الأسود الذي أكرهه، وأبتلع بصعوبة الخبز البائت لبقية حياتي.

تجاهلت الصوت الذي يتبعني، ركضت حيث زوجتي، كانت تخلع ملابس المنزل لترتدي ثياب الخروج، ستخرج كعادتها صباح الجمعة لتشتري السمك المشوي، تحديدًا مشوي، شيء يشبه حالتي في تلك اللحظة. لأول مرة ألاحظ جسدها، في أيام الرخاء كنت أنساه بمجرد النظر نحوه، أفقد تفاصيله التي سجلتها يدي في ثوان، أنسى لون البشرة، طول الشعر، شكل شفتيها، أنسى كل شيء. أسجل الآن كل تفاصيلها في لحظتي المرعبة، العقل البشري غريب، يختار أوقاتًا غير مناسبة لتفاصيل غير مهمة، تراجعت عن الفكرة، وأنا أحرك رأسي بقوة، خشيت للحظة أن يهرب هو الآخر، سأصير مجنونًا بعدها ولا سبيل لإعادة اتزاني.

توقفتْ عن حركتها، أغلقت سحاب البنطال الجانبي، ونظرت نحوي باستغراب واستنكار أعلنته وهي تسأل:

- أنت لسه مصر على الفول؟!

فتحت فمي كسمكة، كالسمكة التي ستحضرها، وسآكلها عن طيب خاطر، كنت متخبطًا أحرك يدي، ولا أعلم لمَ، أشير خلفي دون أن أنظر، وأركز نظرتي على وجهها في أمنية يائسة أنها ستفهم.

زفرت بضيق، أدخلت رأسها الصغير في عنق كنزة صوفية سوداء:

- مالك النهاردة؟

سألتْ، التفتُّ خلفي أشير إلى المتهم الحقيقي، لم أجد إلا صورتي بالمرآة، الكلمات تندفع من رأسي، تسير فوق أعصابي، تستقر براحة على لساني، أفتح فمي بتردد، ألفظ جملة احتمالية فشلها واردة.

- أنا آسف.

لم أعرف سبب اعتذاري، لم أهتم، ابتلعت ريقي، ابتلعت معه صوتي الهارب ليستقر مكانه الذي أملكه، وأصمت مؤقتًا.

منتصر

ثلاثة أيام، وينهي كل شيء، أمور بسيطة عليه أن يفعلها ليهزم الموت، سيغمض عينيه حتى لا ترهبه رؤيته، فيتوقف قلبه فجأة، ويكمم فمه حتى لا يغافله فيسرق روحه.

سيهزمه، سيقتلع نفسه من براثنه، ويسير منتشيًا بالنصر، سيكون حديث الرجال في المجالس، وفارس أحلام العذراوات بين همساتهن الحيية، سينشدن الأغاني تخليدًا لاسمه، سيرددن برسيوس هزم ميدوسا، ومُنتصر غلب الموت.

مُنتصر.. اسم يليق به.. بتناقض معناه، بمجمل هزائمه، لكنه الآن سيكسر لعنة الفشل، لغز الموت المرعب سينتهي ويبقى هو بفعله مخلدًا بين كل من أعتقوا من شبح الموت.

ابتلع ريقه بألم، بعض من عطش لن يؤذيه، شيء من جوع لن يضره، سيتحمل لأجل هدفه الأسمى، نادرته التي لن تكرر أبدًا.. رسالته التي ستحفظ الإنسانية، هو صاحب رسالة وتلك سابقة في سجله المهترئ.

ثلاثة أيام مرت، شعلة حماسه تخبو، يتسلل الوهن إلى جسده كامرأة تسير بوقع أفعى غير مرئية، انقسمت روحه ألف مرة، وكل مرة ينفلت منه جزء يصعب استرداده، وهو ما زال على كبره، عناده، وإيمانه بمقدرة الانتصار.

ثلاثة أيام أخرى، رائحة كريهة تنبعث من غرفته، سكون مخيف، أشياء تعلن «كان الموت هنا»..

كان مكومًا في ركن مظلم، عصابة عينيه ملقاة إلى جواره، يحتضن نفسه وكأنه حاول أن يُلملم فتاته الباقية، يمسك في يديه ورقة صغيرة يقبض عليها بقوة، كتب فيها قبل ثوانٍ من ظلمته بخط خائف مهتز:

«هُزمت؛ لأنني لم أؤمن.. أنه لا يُهزم أبدًا».

شارع الكلاب

امتلأ الشارع بالكلاب فجأة، لم يعرف أحد متى ظهرت تحديدًا، نبتت من الأسفلت كنبت شيطانيّ، تتجمع في حلقة كبيرة، بوسطها قائد كذئب يسيرها، أو يلقي التعليمات بنباح ثابت لا يتغير نغمه كل ليلة، اتصلنا بالشرطة كأمر بديهي لأول قوة حماية نستعين بها، في البداية اعتبروا الأمر مزحة، ولم يؤخذ على محمل الجد إلا عندما بكى صديقنا كامرأة، وهو يستغيث بهم، حاولت سيارتان دخول الشارع، إلا أن وقوف الكلاب كصف واحد بعيون شريرة، وأنياب بارزة تهدد بالتمزيق، جعلتهم ينسحبون في هدوء، ويخبروننا في مكالمة تالية أن علينا التصرف بأنفسنا، إما التأقلم أو... لم يكمل الرجل جملته، لكننا فهمنا أن المقصود هو الموت دون إزعاج.

مع الظهور المفاجئ الذي حدث ليلًا عندما نبح أول كلب فيها، كنا نظن أن علينا تجنب الخروج في المساء، خاصة بعدما اختفى عدد منا، ولم يعودوا أبدًا، كانوا يخرجون الواحد تلو الآخر، مرات في تحدٍّ، ومرات في اضطرار إلى الطعام، وأخرى للعمل، وفي كل الحالات كنا ننتظر تلك الخطوات الجريئة أو الاضطرارية للخروج على أمل أن يعود أحدهم حاملًا فوق وجهه علامات انفراج الغمة.

امتنعنا عن التسكع في الليل، نسينا جميعًا السهر حتى الخيوط الأولى من الفجر، نسينا تجمع المقهى المفضل، والسير لمسافات طويلة إلى بيوتنا مصحوبًا بضحك صاخب يوقظ النائمين ليلعنونا.

تعلمنا السهر ترقبًا، اخترعنا أمورًا تلهينا عن الملل الذي لم نعتده أبدًا، نومض الكشافات من النوافذ باستخدام شفرة موريس التي تعلمناها مجبورين، كانت الكشافات تنبه الكلاب الرابضة في الشارع، فتزوم بصوت غاضب كما لو أنها تقول إن الضوء يزعجها، ارتبكنا في البداية، وخشينا أن تقتحم بيوتنا فجأة لتلوكنا في فمها، وتطحننا بأسنانها الشرسة، ولم يحدث، اكتفت بالدمدمة، واستمررنا على الإشارة اللاهية كخيط أمل رقيق سيدفعها للرحيل.

استمر ظهور الكلاب ليلًا لفترة قصيرة كأنها استسلمت لفكرة أننا لن نتوقف أبدًا، اختفى النباح، وتبدلت نوبات الظهور، أصبح تجمعها صباحيًّا، بنفس الحلقة ونفس القائد ونفس العواء، وأصبح من الصعب إزعاجها بإشارة تلتحم بضوء النهار فتذوب، فأخضعناها من خلف النوافذ الموارية لدراسة جديدة، ما الذي يدفع الكلاب إلى تغيير نمطها الثابت، كانت تستيقظ في السادسة بنباح متواصل كمنبه عنيد يوقظها، ويوقظنا معها، وفي المساء يغلف الشارع الصمت، ورغم تبدل التوقيت، لم نجرؤ لمرة واحدة على الخروج ليلًا، لأن حالات الاختفاء ما زالت مستمرة بعد أن ظن بعضنا أن الأمان الليلي الذي كنا نلتحف به قد عاد، فأصبحنا محاصرين ليلًا ونهارًا.

الكلاب تزايدت، ولم يعد التواجد مقتصرًا على الذكور، وإنما ظهرت إلى جوارهم الإناث، تشابه تزايدها مع نقصاننا، بعد أن اختفى الرجال، وظنت النساء أنهن في مأمن، كنا للحقيقة نعتمد عليهن عندما بدأ الأمر، وتأكدنا أن الكلاب تستهدفنا، نوكل لهن كل المهمات، نترك بين أيديهن كل المال تحت بند معلن باسم «ماذا لو؟»، ولا يمكن المخاطرة بانزعاج إحداهن وامتناعها الفجائي عن المساعدة، كلما خرجن كن ينظرن إلينا نظرة شماتة قاسية كما لو أنها لحظات انتقامية منتظرة قد آن أوانها؛ لأننا يومًا ما مارسنا سلطتنا الذكورية، ورفضنا خروجهن في كثير من المرات بلا مبرر حقيقي، كن يرتدين أبهى الملابس ويخرجن ليلًا دون خوف من الكلاب المجتمعة، يسرن إلى جوارهم دون اختلاج واحد، بعدما كن يفزعن فقط من النباح. الكلاب أيضًا التزمت الصمت عند عبورهن، وكأن فعلًا مقدسًا جاريًا حدوثه يستلزم التبجيل. ظلت نساؤنا في حالة غرور، وظللنا في حالة غضب، وظلت الكلاب في حالة احترام، حتى اختفت إحداهن، خرجت بعد أن فرغ البيت إلا منها، كانت في حاجة ملحة لترك الجدران التي التزمت الصمت يوم أن فُقد زوجها، ويومها وبدلًا من البكاء والحزن على غيابها، ضحكنا حتى تقطعت أنفاسنا، وانتشينا عندما رأينا دموع الخوف التي بكيناها خفية تنتشر في رعب على خدودهن، فتُسيّل الكحل الذي رسم بدقة وسعادة وقت أن حرمنا من حريتنا.

البيوت أصبحت فارغة كأنها ميتة، يغيب الرجل أولًا، ثم تغيب امرأته، كانت النوافذ التي تركت على أمل العودة ما زالت مفتوحة مزينة بخيوط عنكبوت لاهٍ تتيح العبور، وكفرقة استطلاع تحركت مجموعة من

الكلاب تستكشف المنازل، لم يبد استكشافًا عندما دققنا، كانت مثل عودة، يسير الواحد منهم في ثقة نحو النافذة المشرعة، يقف على قدميه الخلفيتين كآدمي، ويسير خطوات بسيطة نشكك أنها تعود لصديق كنا نعرفه سابقًا، يقفز قفزة واثقة إلى الداخل، وخلال ثوانٍ، يفتح الباب وتدلف أنثى معينة، لا يختارها الذكر من بين المجموعة، بل تخرج هي من بينهن كمن تعرف أن هذا البيت بيتها هي ولا أحد آخر.

أُضيف إلى الجمع من الإناث والذكور صغار، تخرج الأنثى من البيت منتفخة، فنظن أنها ستحمل صغيرها داخلها للأبد، لكنهم يتكونون في أيام قليلة، ويشبون بسرعة في تحدٍّ صارخ لطبيعة التكون. انتشر الصغار في شارعنا كدمى أطفال محشوة، يركضون في مجموعات، يقفون أمام منزل يسترق صاحبه النظر، ينبحون لاستدعاء أهاليهم، فيقفون كمجموعة صغيرة تدمدم كحديث ملغز ثم ينصرفون، وفي اليوم التالي يختفي الذي استرق النظر، وتزيد الكلاب واحدًا.

حاول واحد منا، بعد مناقشات هاتفية أن يتحاشى الوصول إلى مرحلة المفقودين، بل إنه سيحاول فرض سيطرته عليهم بفعل مرعب، فقرر أنه في اللحظة التي ستتمركز الكلاب بشارعنا، سيتسلل إلى أحد البيوت، يربض في مكان مخفي كتمثال، وعندما يعود أحدهم سيقتله ويمثل بجثته حتى يخشوه وتعود إلينا السطوة. وضع صديقنا خطته في حيز التنفيذ، راقبناه باختلاس وخوف، وهو يركض إلى بيت مجاور متسترًا بالشمس التي كرهتها الكلاب، استقر بالداخل لساعات، كانت قلوبنا وقتها تصنع ضجيجًا مخيفًا خشينا أن يكون مسموعًا، دلف الكلب وأنثاه إلى البيت، فأوشكنا على الخروج من النوافذ، انتظرنا لدقائق مرت كسنوات، سمعنا ارتطامات خافتة، ونباحًا مستغيثًا مكتومًا، بعدها حل الصمت.

توقعنا عند تلك النقطة أن يخرج صديقنا، وقد حمل رأس الذكر وأنثاه بين يديه، ليقف على عتبة البيت ليرفعهما وهو يصرخ صرخة طرازان لإعلان السيطرة، لكن ما حدث أن خرج الكلبان يجرانه من قدميه، يلقيانه أمام قائدهما، وتتجمد جميعًا كتماثيل.

للموت طرقات ثلاث

١

استيقظت منتصف الليل، وقف أمامي في الظلام، لم أتبين ملامحه، كانت تغيبها الظلمة، وقفتُ، تصلبت دون حركة، اكتفى بتركي، واتجه إلى الصالة. كانت خطواته ثقيلة، خطوات أعرفها، تشبه خطواته العرجاء، بعد حادث احتراقه، اشتعل البيت فجأة، اشتعل دون سابق إنذار، كان نائمًا، استيقظ فزعًا، لم يغيبه الدخان كما اعتقدت، لم يمت مختنقًا، أمسكت النار جانبه الأيسر كله، حاول الخروج من الغرفة، لكنه فشل، حاول النجاة من النار، فقفز من النافذة.

٢

خلف زجاج شفاف، وقفتُ أراقبه، جسده مغلف بالأبيض، يعطي انقباضة مرة، بعض الانقباضات لها أطعم لو أنك ركزت، هناك انقباضة سعيدة بطعم السكر، والحلوى المغلفة برائحة الفاكهة، وانقباض مر كما العلقم الذي أشعر به.

الشاش الأبيض غلفه ككفن، كانت إشارة سيئة، عندما ربطتُّ بين الشاش والكفن، ظهر الطيف الذي أخشاه، وقف إلى جواري، لم أستطع الالتفاف نحوه، اكتفيت بمتابعته بطرف عيني، متابعة خائفة، لم أتخيل في أي يوم من أيام حياتي، وأنا أجمح بخيالي أنني سأهاب الموت، كم من المرات رأيتني بطلًا أسطوريًّا يعاني النزع الأخير في شجاعة، وهو يشعر بالبرودة تتسلل في عروقه بعدما شعر بدمه يتسرب خارجها. الحقيقة دومًا مختلفة، مغايرة، وكاشفة. ارتعدت، ولم ينتبه، ربما لأن موعدي لم يأت بعد، ارتجفت أكثر من الفكرة، طرق طرقة واحدة على الباب واختفى.

٣

عندما رأته من خلف الزجاج؛ لطمتْ، ولولتْ، هدلتْ بصوت حنون رغم اللوعة، ذكرته بكل الأسماء المحببة إليه عله يستجيب، يفتح عينه الناجية، ويترك الأخرى مختبئة أسفل غطائها. لم يستجب، ولم تصمت، ولم أتحمل، تركتها وخرجت، احتجت الهواء، كنت أشعر بالدخان الذي لم أختبره يملأ رئتيّ، أخرجت علبة سجائري، أشعلت واحدة، أوشكت على امتصاص خلاصتها التي تسيطر على انفعالي، لكني رميتها، رأيته فيها، بجسده الذائب، وحجرته المشتعلة، ونافذته المحطمة، حطمت العلبة التي لم أستخدم ما فيها بعد، وعدت إلى الداخل، أسمع عويلها وأختبر قدرتي على التحمل.

٤

أسبوعان مرا، وما زلت أقف بالموضع ذاته، وأنظر النظرة ذاتها، وانتظر التغير. لمست بعض التحسن، أزيل الشاش من فوق عينه، فظهر موضعها المطموس، تخيلتها تبكي لأنها ماتت! أيمكن أن نبكي أنفسنا بعد الموت؟ لا أعرف، أظن أنني حتى أعرف عليّ أن أموت، وعندما أموت لن يعرف أحد، تكمن غرابة الموت، ورعبه، في فرديته، والمرء منا مفطور على الناس، يولد من رحم امرأة كوَنس، من نطفة رجل كنصفه، يحيا بين إخوة كمشاركة، ويتزوج امرأة كاكتمال، لا يعيش بمفرده، ولا يسمح لذريته من بعده أن تبقى منفردة، ولذا تكون قسوة الموت في الوحدة.

هدأتْ عندما أزيل الشاش، رغم جزعها، امتعضت للحظة، غالبت رغبتها في التقيؤ، رغم أنها تحبه، شكل الجلد المحترق مقزز، تجاعيد تسبق التقدم بالعمر بألف سنة، مظهر دهني يزهد المرء في أشكال الطعام، رغم ذلك تقاوم عقلها الرافض، المصدوم، تتجاوز رغبتها في الركض إلى الخارج وإطلاق العنان لمعدتها، تبتلع ريقها مرة، مرتين، وتتبعه ببعض الماء، تبتسم، ترى في تلك الخطوة حياته، رغم أنه ما زال في صمته، ولم نعلم ونحن نقف بالخارج، أهو صمت مفروض عليه أم من اختياره.

٥

بعض الخسائر لا تهم، قالتها ونحن نراقب الممرضة تساعده على الجلوس فوق مقعده المتحرك، ما زالت الحركة بحرية أمرًا بعيدًا.

نظر إليها بعينه الحية بعتاب، بعدما دفن الميتة في كفنها الأبيض، ومرة أخرى ينقبض قلبي.

خسائره كانت أكبر من قالب الجملة، خسر بيته، عينه، ذراعه ستصعب حركته، وساقه ستظل عرجاء. رغم معرفتها أرادت أن تمنحه الأمل، فمنحته جرعة ألم مضاعفة.

عند الباب، بعد فتحه مباشرة، ظهر الطيف مرة أخرى، وكما المرة الأولى لم أنظر، ولم يلتفت، طرق طرقة جديدة، وذهب.

التفتتْ إليها، راقبتْ ملامحها، ولم تهتز، لم تره، لكنه بعدما رافقنا الصمت في رحلة الخروج من المشفى، نطقها «رأيته بعيني الميتة».

٦

لم نعلم سر صمته، أوكلناه لصدمة متأخرة، أو عدم الرغبة في الحديث، كان يتابع الأخبار في شغف غريب، يبحث عن الحرائق، يتابع أخبار الناجين، يردد كل يومين أو أكثر، عندما يرى حادثًا مأساويًّا ذات الجملة التي قالها بالمشفى «رأيته بعيني الميتة».

تأكدت يومها أن النهاية قريبة، أن كل ما يحدث ليس أكثر من تنبيه، أو ربما إشارة للاستعداد.

بالبيت سحبتها لمكان بعيد، مظلم، وهمست لها أنه سيموت؛ فصفعتني. كانت صفعتها قوية، تخرج من قلب امرأة خائف لتتحول إلى قوة رجل على باب يدها، لم تصدق رواياتي، أو جملته، لم تسمعها مرة، ربما هو حظي السيئ الذي لم يمنحني دليلًا يقنعها، أجلستها إلى جواره طوال اليوم، طلبت منها أن تراقب شفتيه، تتابع همسه، وستعرف.

راقبته ليومين، ولم يفتح فمه.

٧

خطواته العرجاء، كانت حجة عليّ، خطواته العرجاء كانت دليلها الوحيد أنه سيعيش، لا يسير الميت في اعتقادها، يتيبس في انتظار الموت، امتلأت حقدًا ضدي، صنعت جدارًا من الصمت بيننا، فأصبح البيت مقبرة، لا يحيها إلا صوت الموت القادم من التلفاز، لا نأكل معًا، لا نتقابل في ممر، لا تجلس بالمكان الذي أجلس فيه. نبذتني، وكنت معزولًا بالحقيقة.

الليلة شتوية، الرعد والبرق يشعلان السماء، والتيار الكهربي يحتفل بانقطاع مستمر مفاجئ يربك قدرتنا على التوقع.

كنا أنا وهو، أما هي، لظروف الطقس ستتأخر. قررنا النوم، تمدد على أريكته، ونمت بالغرفة، سقطت في غيبوبة، رغم صوته الذي يردد الأخبار كما لو أن تلفزيونًا منسوخًا داخل فمه، ولم أستيقظ إلا فجأة، بمنتصف الليل لأجده أمامي.

ناديته، فلم يرد، تسمر لثوان ثم استدار، تبعته بعدما تركني واتجه إلى الصالة، جلسنا متجاورين على الأريكة، نراقب الشمع الذي زين المكان، ظهر الطيف من جديد، وقف إلى جوار باب البيت، طرق طرقة جديدة واختفى.

اشتعلت النار فجأة، كما لو أن الطرقة إذن بالصخب، حاولت تفاديها، إخمادها، قتلها، ولم تمت.

كنت أتحرك بذعر، وهو يجلس على الأريكة في هدوء -كما لو أنه انفصل بغلاف يحميه مما يحدث- ويردد متتبعًا حركتي بعينه «رأيته بعيني الميتة».

قلت بغضب إنه عاد ليأخذه، فأجابني بذات نبرته الهادئة «بل ليأخذك».

٨

خرجتُ من المشفى بعدما حاولت إنقاذه وفشلت، مات مختنقًا بالدخان الذي لم يقتله بالمرة الأولى. خرجتُ فوق كرسي متحرك، بعدما منعت من الحركة، وقد كفنت عيني بضمادة بيضاء، لم أرغب في النوم بغرفة مستقلة بعيدة، كنت خائفًا، أردت أن أكون بالقرب من الصوت، شاهدت الأخبار، كلما ظهر حادث حريق اشتعلت حواسي، استعدت احتراقي في المنزل، ومحاولتي النجاة بالقفز من النافذة، أحفظ الحادث والحوادث المشابهة. حاول إقناعي بالنوم بالغرفة، ورفضتُ، نظرت نحوه، ورأيت الطيف بعيني الميتة بكل تفاصيله التي لم تظهر لي من قبل، تمتمت «رأيته بعيني الميتة».

في البداية لم يفهم، ثم صمت، دخل غرفته، أغلق بابه، اقترب الطيف من الباب، نظر نحوي لثوان، قبل أن يطرق طرقته الأولى.

شعرة بيضاء

نبتت في مقدمة رأسي شعرة بيضاء، نبهتني إليها زوجتي، قالتها وهي تبتسم ابتسامة شامتة.

كنت أمشط شعري بطريقة سريعة، لا أنظر نحوه، فقط أسير على الخطوط الوهمية التي خزنها عقلي، أقوم بالمهمة بروتينة شديدة، حتى إنني أشرد أغلب الوقت في أمور أخرى، في الأولاد، زوجتي التي تصر على أن الصبغة الصفراء تجعل شعرها أكثر تألقًا، وهو لا يزيدها إلا شحوبًا، سكرتيرة المدير الجديدة التي خيبت أملنا جميعًا في أن تكون جميلة؛ فنزجي الوقت بالتودد إليها، المهم أنني لا أولي شعري انتباهًا.

شردت كالعادة، واقتنصتني هي من سلامي الصباحي لتعلن لي عن الضيفة الجديدة التي احتلت مكانًا مميزًا. قالتها وخرجت، وقبل أن تفعل لم تنسَ أن تضحك وتردد كلمة سخيفة معروفة «يا عجوز».

لم أجبها، كنت مصدومًا من اللقب، ومنشغلًا بالاقتراب من المرآة لرؤيتها. شعرة تقارب طول شعري العادي، سميكة، متجعدة قليلًا، خرجت عن قطيع شعري الذي نام بارتياح في المكان الذي اخترته، نفرت إلى جهة أخرى، وكأنها تعلن عن نفسها بعد أن تنبهت لوجودها المفاجئ.

تلمستها برفق، كما لو أنني أخشى أن تكون ذات ملمس يقشعر له بدني، كانت فقط خشنة، وقررت نزعها.

بحثت عن ملقط الحواجب الذي تستخدمه زوجتي، لم أجربه من قبل، رغم أن بعض زملائي يفعلون، يساوون حواجبهم كالنساء، يمعنون التدقيق في كل شعرة غير مرغوبة، ينتابني الضيق في كل مرة ألاحظ الرسمة الأنثوية للحاجب فوق وجه ذكوري، أشعر بالارتباك، سألني الحلاق في إحدى المرات إن كنت أريد تهذيبهم، ورفضت بحدة، فلم يقدم عرضه مرة أخرى، في النهاية ابتلع أمر زملائي بلا نصح، أو لفت انتباه؛ لأنها حرية شخصية.

فرقت شعري أعزله عنها كأنها معدية، أردتها واضحة، حتى يكون اصطيادها سهلًا، ناورتْ في البداية كما لو أنها تعلمت من جداتها أن الإنسان يستنكر في كل مرة جزءًا طبيعيًّا منه، يستنكر في البداية طوله الفارع، ثم يحبه، يستنكر صوته الأجش، ثم يشعر بأهميته، يستنكر رجولته الظاهرة، ثم يتخيل أنه ذكر النحل الذي ستميزه الملكة بالاختيار، فيتقاسم معها الخلية كما سيتقاسمان النحل.

تغاضيت عن أفكاري، وسلطت كل طاقتي على تمكين الملقاط منها، وعندما هممت بنزعها، علقت زوجتي التي وقفت تراقبني مدة طويلة، دون أن ألاحظها، أن ما أفعله خطأ كبير، وأنها ستواصل الظهور، وأنها في كل مرة ستغيب؛ ستعود بصبحة مجموعة أكبر مماثلة، إمعانًا في الانتقام.

قالتها وختمت جملتها بنصيحة:

- «تقبل الأمر، هي في النهاية سنة الحياة تدور على رجل مثلك».

رجل مثلي! ما معنى الجملة، نسيت الشعرة لثوان، وأنا أتأمل نفسي بالمرآة، لم أتجاوز الثالثة والثلاثين، جسدي مترهل بعض الشيء، بطني بارز بعض الشيء أيضًا، الانتفاخات أسفل عيني أضيف عليها هالات سوداء، زاويتا فمي تميلان بشفتي إلى الأسفل -كعروس مصنوعة من الخشب- في استسلام ملموس لتيار الحياة، ملابسي تعاني تنافر بالألوان ولا شيء آخر.

كنت نسخة من أبناء جيلي، الذين يعملون معي على الأقل، جميعنا أبناء حقبة الثمانينيات، نعيش في موضة القميص الكاروهات، والبنطلون الجينز الواسع، بدلًا من التيشرت الملتصق بالجسد الذي يبرز عضلات البطن الست، والبنطلون الضيق الذي يظهر عضلة الفخذ القوية، نستمع إلى شرائط الكاسيت التي تحاول الانقراض، ونحميها بجهاز التسجيل العتيق الذي نفتديه بأرواحنا.

ألقيت الملقاط بضيق، نظرت نظرة أخيرة بالمرآة، ازداد بريق الشعرة فجأة، كأنها ضوء وهاج يوشك على إصابتي بالعمى، حاولت تجاهل النظر إليها ولم أستطع، فتركت الغرفة كلها، وقررت الهروب إلى العمل.

في الصالة كانت زوجتي بانتظاري، وابتسامتها الشامتة ثابتة فوق شفتيها. عندما قررت الزواج، سرت على نهج العرف السائد، بين وصايا الجدات، وإصرار الأمهات، أن تأخذها صغيرة في السن هي فرصة كبيرة لتشكيلها، وفرصة أكبر لنيل خصوبة رحمها، التوقعات في العموم تصيب مع جملة الناس، ولكنها معي تعثرت، فلا أنا شكلتها، ولا أنجبنا البنين والبنات رغم مرور ثلاثة أعوام على زواجنا.

اقتربت مني بلطف زائد، مسحت بكفها الصغيرة فوق رأسي تلمس ضيفتي غير المرغوبة، قبل أن تعلن قرارها «سنقيم حفلًا صغيرًا على شرف ظهورها» لم أجبها، خرجت وأغلقت الباب بعنف وصوت ضحكتها يلاحقني.

أول ما فعلته عند وصولي إلى العمل، جذبت صديقي الوحيد إلى مكان منزوٍ هادئ، أشرت نحوها ولم أتحدث، ضحك فجأة، وهو يشير إلى الفرقة التي تجمعت بمقدمة رأسه هو الآخر، تعجبت من نفسي، أنني لم ألحظ لمرة واحدة تجمع تلك الغيمة في مقدمتها تحديدًا. ما سر اختيار موقع كهذا؟ أهو حب الظهور الذي يسري في كل شيء أنثوي، أهي مزية الإشراف على الأحداث، التذكير بالحكمة التي تفقد في لحظات الجنون المفاجئة؟ طرحت السؤال على صديقي، وأجابني أنها علامة الحكمة طبعًا. لا أريد أن أكون حكيمًا في تلك المرحلة، لا أريد أن أكون حكيمًا من الأساس.

في أشد كوابيسي قسوة، لم أتخيل أن ظهورها بإمكانه أن يغير من مزاجي إلى تلك الدرجة، أعرف أنها مرحلة ستمر، ولكن متى، وكيف؟

اقترح صديقي أن أخفيها بالصبغة، إن كانت ترهقني نفسيًّا إلى هذه الدرجة، وحذرني بلهجة حازمة ألا أزيلها من جذورها أبدًا، لأن ما شكل غيمته هو تحديها، وكرر فجأة فكرة زوجتي وكأنه اتفاق بلا اتفاق، أراد أن يحتفل بميلادها، لأنها في تلك اللحظة نادرة.. ووحيدة، وتمنيت -بعد أن سببتُ صديقي- أن تدوم وحدتها.

بعد يوم متعب، وإصرار مني على متابعتها كل دقيقة كما لو أنني أراقب نموها؛ عدت إلى بيتي، وقد قررت أن أرسم الوجه المتجهم، لأقطع أي سبيل للسخرية، أو الاحتفال إن صدقت زوجتي في قولها، وكانت نتيجة الفعل مضمونة، تجنبتني بقية الليلة، ونمت متخففًا من بعض الضيق.

طاردتني الشريرة في نومي، لم تظهر بحجمها الطبيعي، وإنما احتلت رأسي كله، كانت ثقيلة فأحنت رأسي رغمًا عني، شعرت بالألم في عنقي، صرخت، طلبت منها التوقف، ولم ترحمني إلا عندما ركعت باستسلام لسلطتها.

استيقظت فزعًا، اصطدمت عيني بوجه زوجتي الباسم، وعرفت معنى الابتسام، هو أمر لن ينتهي إلا بظهور شيء آخر ينسيها الشريرة التي نبتت برأسي. اتجهت إلى الحمام وقفت أتأملها لثوان، زوجتي بالمطبخ تعد الإفطار، دقائق أخرى أمام المرآة، قررت صنع تغيير يريحني.

على المائدة، جلست مبتسمًا أمام نظرة زوجتي غير المصدقة لرأسي الحليق!

قطار

مشهد ١

القطار/ ليل داخلي

أنبت فجأة داخل قطار سائر، لا أعرف متى تواجدت داخله تحديدًا، كل ما أعرفه أنني اغمضت عيني لثوان، فتبدل كل شيء. أجلس على مقعد معتاد، أسافر طوال الوقت لأنهي عملًا فأختار المقعد ذاته؛ المقعد الخامس في ترتيب الصفوف بعيدًا عن النافذة. النوافذ تصيبني بدوار، أرى البيوت وأعمدة الإنارة تنسحق، فأتخيل نفسي بينها ويصيبني الانسحاق ذاته. كثيرًا ما فكرت في طريقة موتي، ومن بين كل الأفكار التي راودتني كانت تلك أكثرها رعبًا.

ألاحظ مسافرًا يجلس أمامي، وجه المسافر يتغير في كل مرة أركب فيها القطار، وكأني الثابت الوحيد في كل هذا التغيير، يمسك المسافر الغريب كتابًا متوسط الحجم، أدقق فيه، فأجده إنجيلًا، يردد الرجل فجأة «لو سِرتُ في وادي ظِلِّ الموتِ لا أخافُ شَرًّا، لأنَّكَ أنتَ معي»، يظهر أمامي مصحف بنفس حجم الإنجيل، ألتقطه من المقعد المجاور، أفتحه بعشوائية فأقرأ «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ» أغلقه وأضعه إلى جواري، فيختفي، وكأن رسالة اليوم المبعوثة لي قد تمت.

أحاول إزجاء الوقت بتأمل ما حولي، العربة مظلمة إلا من ضوء خافت يظهر بتقطع من أعمدة الإنارة الراكضة، الرؤوس الظاهرة من المقاعد تبدو ثابتة كما لو أنها عرائس مثبتة بغراء قوي، يصرخ صوت في سماعة داخلية باسم محطة لا أتبينه، ينهض الجميع، فأنهض معهم في فعل جمعي غير مفهوم، أقف في الطابور القصير نوعًا، فألمح رجلًا يقف إلى الباب وقد أمسك دفترًا شفافًا، ورغم ذلك لا يظهر منه شيء. يتوقف القطار، ينادي الرجل اسمًا، فيتحرك صاحبه من الصف ويخرج دون أن يلتفت لنا، أنتظر أن أسمع اسمي حتى أتبين خطوتي التالية، فيغلق الباب، ويغلق العجوز دفتره، ويتحرك القطار، فأعود إلى مقعدي، يظهر المصحف مرة أخرى، أفتحه فتظهر الآية ذاتها، ولا أفهم الرسالة.

مشهد٢

محطة القطار/ ليل خارجي

يتوقف القطار في محطة أخرى، أقف في الطابور بتلقائية كمن فهم اللعبة، وأنا لا أفهم شيئًا، ينادي الرجل الأسماء، تسعة أسماء هذه المرة حتى وصل الصفحة الأخيرة، المرة السابقة نزل خمسة أشخاص، أوشكت على العودة إلى مقعدي، عندها نادى اسمي، ورغم أني أنتظره منذ فترة إلا أني ارتعدت.

نظر العجوز نحوي نظرة طويلة، تمنيت لو أتوقف وأسأله عن سرها، لكني نزلت دون أن أنتبه.

المحطة مظلمة إلا من إضاءة خافتة. فارغة رغم العدد الذي نزل معي، وجدتني بمفردي، وشعرت بالتيه، أين باب الخروج، وإلى أين، وإن كان علي انتظار القطار التالي لأضمن الاستمرار بين الجموع، فأين أنتظر والمحطة خالية من شباك تذاكر أو مقاعد للراحة!

خرج صوت من مكبر صوت مخفي أرعبني وهو يجيب تساؤلي الداخلي «لن يعود القطار».

علي إذن أن أسير بمفردي، اخترت أن أسير إلى يميني كنوع من التعود على اختيار اليمين المحاط بالطيبة، وأبتعد عن اليسار الجامع للشرور، سرت في خط مستقيم في انتظار الوصول إلى باب الخروج من المحطة، ولم تكن المسافة هينة. ربما سرت لساعة، أو أكثر، لا أعلم تحديدًا، كل ما أعلمه أن الخوف تملك نفسي، وأني شعرت به كنصل مدبب موضوع بمؤخرة عنقي، سرت وأنا أخشى الالتفات، سرت حتى وصلت إلى باب ضخم، عرفت أنه باب الخروج، وعند الباب.. شهقت.

مشهد ٣

حجرة/ ليل داخلي

شهقت كناج من الغرق، كنت أعب الهواء في صدري كأنه سينفد، جلست بحدة وأنا أفعل، فاستيقظت زوجتي فزعًة، أضاءت مصباحًا جانبيًّا، ووضعت يدها على ذراعي، فوضعت يدي حول عنقي كما لو أني أتأكد من دخول الهواء إلى رئتي. سألتني بصوت ناعس:

-»الحلم نفسه؟».

أومأت، ولم أقوَ على التحدث، طوقت ظهري بذراعها، وبالأخرى مسدت ساعدي، ونصحتني بصوت مجهد:

-»اقرأ بعض القرآن».

نظرت إلى المصحف إلى جواري، كان نسخة من المصحف الذي رافقني في الحلم، التقطته بحذر، وما زالت الآية التي ظهرت بحلمي متجسدة أمامي، فتحت أول صفحة، قرأت الفاتحة فهدأت، أغلقته وفتحته مرة أخرى بعشوائية كما لو أني أكسر تنبؤ الحلم بموتي، ظهرت آية أخرى «رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ»؛ هدأت، ونمت.

مشهد ٤

مكتب/ نهار داخلي

في الصباح، جلست إلى الإفطار بلا شهية، وفاجأني طفلي أنه رآني في حلمه، تسمرت لثوان، انقسمت بين أن أطلب منه حكيه، وبين تجاهل حلمه، لأن ألم حلمي ما زال حيًّا، حبستني زوجتي داخل نظرة ضرورة الاستجابة، فابتلعت ريقي في خوف وطلبت منه قصّه.

حديث طفلي بسيط، رغم التوتر الذي شملني وهو يعيد عليّ تفاصيل حلمي من زاويته، يصف القطار نفسه، والصفوف نفسها، ويلومني أني تحركت خارجًا من القطار تاركًا إياه، كان الحزن يعبق غلافه، والخوف يغلفني. طمأنته بنبرة جعلتها بعد جهد هادئة، أني لن أتركه أبدًا، ودعمتني زوجتي بالتفسير أن كل حلم يخص صاحبه، وأن بعض الأحلام لا قيمة لها.. وكيف تعرف؟!

رفضت سيارتي التحرك من مكانها فجأة، رغم أنها غير معطوبة، استسلمت بعد محاولات فاشلة، واستقللت تاكسيًّا، ورغم ذلك وصلت إلى العمل متأخرًا.

لم أكن المتأخر الوحيد، وقفت وزميلي أمام المدير الغاضب لسبب ما، دائمًا هناك سبب مجهول لغضبه، لا يفصح عنه، ولا نسأل، ألزمنا كنوع من العقاب بمأمورية خارج المكتب، ظنًّا منه أنه عقاب بسيط ما دمت أملك سيارة، لم أخبره آخر المستجدات، ولم يهتم بالتأكد.

قررت وزميلي أن نستقل القطار، اعتبر هو الأمر كنزهة، واستيقظ داخلي الحلم كصفعة. في كل مرة يراودني الحلم لا يكون متبوعًا بدلالة، إلا تلك المرة، واخترت ألا أفزع.

مشهد ٥

قطار/ نهار/ ليل داخلي

قطع زميلي التذاكر، جلست أمامه، في المقعد الخامس بعيدًا عن النافذة، لأن شعور الانسحاق ما زال حيًّا في رأسي، أخرج زميلي إنجيله الصغير من جيبه، تمتم بآية أعرفها، ففتحت هاتفي على آخر آية توقفت عندها بمصحفي الإلكتروني، كانت ذات الآية في الحلم. فكرت أن في وقت ما، في لحظة غير

محسوبة، تسقط الأحلام المحكية من قدم الطائر، وأنا قصصت على زوجتي كل التفاصيل، وانتظرت في كل مرة أن يرافق التفسير وقوعًا ولم يحدث.

يصدح صوت في ميكرفون داخلي باسم محطتنا، نقف في طابور قصير نوعًا، فأنتبه لشكل الرجل الواقف إلى الباب، يحمل دفترًا بغلاف شفاف، رأيته من قبل، ولكن هذه المرة ينظر نحوي ويبتسم، أنظر حولي بلا إرادة باحثًا عن طفلي، رأيته في كل الأطفال التي تطلعت إلى الغريب في فضول، وزعت عليهم ابتسامة حب، وكأني أرسلها لطفلي الغائب. تحول فجأة النهار إلى ومضات خافتة من أعمدة الإنارة بالخارج تمزق ظلام العربة، أسمع اسمي، أنزل إلى المحطة بمفردي، ويبقى زميلي، أسير بثبات ولا أنتظر صوت المكبر يعلن لي ألا أنتظر كما لو أني زرت تلك المحطة بالذات من قبل، أصل إلى الباب، أعبر وأنا أعلم يقينا أني لن أعود!

خصلة شعر أخيرة

قصصت خصلة رفيعة من شعر أمي قبل أن أغلق كفنها، فعلتها خلسة، تواريت عن الأنظار وانتظرت لآخر صف الذين يلقون عليها نظرة أخيرة، وعندما اقتربتُ طلبت منهم بنبرة حزينة أن يتركوني معها لدقائق، أشار أقاربي لبعضهم أن يخرجوا ويتركوا الابن البار المحزون على أمه برفقتها. وقت أن أمنت جانبهم أخرجت مقصًّا صغيرًا ولملمت خصلة رفيعة، جززتها وأخفيتها في جيبي وخرجت.

لم أبك وأنا أفعل، لكني لم أسلم من تربيتات المواساة والدموع المشاركة لدموعي التي لم تُذرف.

بكيت أمي طوال حياتي، ولم أفهم السبب، منذ أن بدأت في جمع شعرها وأنا في كل مرة أبكي، حاولت الوقوف على سبب، وبعدما فشلت أرجعت الأمر لزميل طفولة فقد أمه في صغره، كان هو صاحب الفكرة، يوم أن أعلنها بغضب في عيد الأم أنه يجمع أمه في خصلة شعر.

ترسخت الجملة برأسي، عدت إلى المنزل وأنا أتابع أمي كقط ضال، أنظر إلى شعرها بتدقيق، ثم تحول التدقيق إلى هيام، أصبحت متيمًا بشعرها، ربما بشعور كل النساء، كل امرأة مرت بحياتي كنت أحيك الحكايات حول خصلها، أقول إن هذه المرأة سعيدة إن أعجبني لون شعرها، أو أحكم عليها بالحزن، أو الكآبة إن كان شعرها قصيرًا، كنت أتفنن في مد فروع التخمينات حتى نبت في عقلي وفي دفتري الذي رسمت فيه كل أشكال الشعر شجرة كبيرة، وبرغم ذلك ظل شعر أمي هو بوصلتي الأولى ومحركي الأوحد.

المرة الأولى التي قررت الاحتفاظ بشعرها، كنت في العاشرة، سرت خلفها أتحين اللحظة التي تمشط فيها خصلها، أرهقت من طول التتبع، وخشيت أن تطردني من حضرتها لقوة التصاقي بها، لكنها لم تنتبه، يأتي على الأمهات لحظة يفقدن فيها الانتباه إلى أبنائهن، ربما تلك اللحظة ما يطلق عليها التعب.

وقفتْ أمام المرآة، أمسكت فرشاتها الذهبية ومشطته بسهولة، كان شعرها سائلًا كماء، لا تتوقف الفرشاة أمام عقد أو تموجات صعبة، فقط تسير كما لو أنها تتحرك فوق قطعة من قماش حريري فتنهي مهمتها في ثوان. في اللحظة المناسبة، وبعد أن غادرت أمي غرفتها، تسللت واقتلعت بعض الشعيرات من الفرشاة، وعدت إلى غرفتي، أخرجت قطعة من شريط لاصق وثبت فيها الشعيرات القليلة، وبكيت. لم أفهم في تلك اللحظة بالذات أسباب بكائي، ربما لغرابة الفكرة التي تبنيتها، ربما لأني لم أعتد أن أملك شيئًا لم أخبرها عنه، ربما لأني أمهد طريقها وطريقي للفقد.

مسحت دموعي، وقررت بصلابة رجل صغير أني مستمر في فكرتي. في كل مساء أتسلل إلى فرشاتها، أظن أنها حفظت ملامحي من كثرة إمساكي بها، فالجمادات تحس، تشعر بصاحبها وتلتصق به، ويدي غير يد أمي الناعمة، فالمؤكد أنها تعرف السارق خير معرفة.

استطالت خصلات أمي القصيرة، واستطالت معها قامتي، أصبحت في السابعة عشرة، ولم أتوقف يومًا عن هدفي، امتلأ الشريط اللاصق بسوادها، فانتقلت إلى شريط آخر لاستمر في جمع محصولي.

في الرابعة والعشرين تأجل الجمع لما يقارب الشهر، كنت في الميدان، أعايش أيام الثورة، ورغم دقة الموقف، ورغم خطر الإصابة، ومصيبة الموت المتربصة بنا، لم يترك شعرها خيالي لثانية، كنت أحصي الغنيمة الضائعة، وأتحسر على مخزوني الثابت. تداخل شعر آخر ليوقف أفكاري، شعر ممو ج بلون بني فاتح، يناقض شعر أمي الأسود، حاولت ممارسة لعبتي المفضلة، رسم الشكل ونسج الحكاية، لم تكن هناك حكاية متخيلة، فشلت في استحضار أي مأساة، أو أي حدث سعيد ألصقه بذلك الرأس، كدت أترك الأمر كله وأمزق الصفحة، حتى استدارت وهي تهتف «ارحل» كانت غاضبة، ملامحها جادة، وتقطيبة حاجبيها تبرز عرقًا في جبهتها لم أره في أي وجه أعرفه من قبل، وقفت إلى جوارها، أهتف بنفس القوة، وأردد الكلمة نفسها، وأرفع يدًا مشجعة لي ولرفاقي، والأخرى أمسك بيد رفيق لي نؤكد البقاء، حتى تحولت يدي بشكل ما لتمسك يدها، كنا نقبض فوق يد أحدنا الآخر كما لو أن فيها النجاة.

نسيت شعر أمي لأيام، وتذكرته عندما حدثت الانفراجة ورحل، يومها ابتسمت لأول مرة، وأنا أنظر نحو شعرها المجعد، وأتذكر شعر أمي الأسود.

عدت إلى البيت، صفعتني أمي بمجرد أن رأتني واحتضنتني، طريقتها في الحب غريبة، تغضب وتحب وتخاف وتطمئن بفعل واحد لن يفهمه إلا ابن لها، احتضنتها بقوة وبكيت بدموعها، مسدت فوق شعرها الأسود، الذي شاب فجأة من الخوف.

في تلك الليلة جمعت شعر أمي من فرشاتها التي تحولت إلى أخرى فضية، وكأن أمي تغير اللون تبعًا لمسارها في الحياة، أو مسار الحياة فيها، كانت أول خصلة بيضاء أجمعها، وضعتها متفرقةً فوق السواد الذي أعرفه، بدا مناقضًا، عجوزًا ووحيدًا، ليلتها بكيت بشدة، بكيت وشعور الفقد أصبح ثقيلًا.

نبت شعر جديد في أسرتنا، بعد عامين من معرفة الشعر المموج، نبت شعر يجمع بين سواد شعري وتموجات شعر أمه، تخيلت طفلي يكبر ليكرر ما أفعله مع أمي، ارتعدت للحظة، وأنا أفكر أن مفهوم الفقد متسع وفضفاض وشامل، ويجمع تحت عباءته كل من أحب.

اتخذت أمي موقفًا عدائيًّا صبيانيًّا، بين شعر طفلي وبينها لأنه لم يأت مماثلًا لشعرها، غابت أيام تحمله وتلومه أنه لم يكن مواليًا لها وهو في بطن أمه، وكأنه طفلها في رحم آخر عليه أن يكون مثلما تريد، وبعد ثوانٍ ينفض العداء وبسقط الصغير في قلبها كقطعة سكر متغاضية عن ماهية شعره.

استبدلت أمي فرشاتها بأخرى خشبية، فرأيتها تشبه النعش، مصمتة، جافة، ومنذرة باقتراب النهاية، تحول شعر أمي الليلي إلى آخر يشبه خيوط النهار الأول، أبيض مشوب بسواد ليلة فائتة، كماض لها يسلم المستقبل الراية، خف شعرها، أصبح مليئًا بالفراغات، سقط معظمه أثناء وعكات صحية، وتحولت مهمة تمشيطه إلى عبء لم يعِنها عليه إلا يدي ودموعي.

كنت كلما لمست شعرها تُردد بنبرة واهنة لا يفهمها إلا نحن «لا تبلله» فأحبس دموعي حتى أرضيها، ثم أنفرد بخصلها القليلة المعقدة أل‌صقها وأطلق ما حبست.

في ليلتها الأخيرة ضاعت فرشاتها، بحثنا عنها في كل مكان ولم نجدها، وكلما سألتها عنها ابتسمت، حتى اعترفت كطفل مخطئ: «ألقيتها في الزبالة».

كانت إشارتها عن النهاية، لا حاجة للتمشيط، تلك عملية حيوية بحتة، نحن نفعل الأشياء اليومية رغبة في الاستمرار، طمعًا في البقاء على وجه الأرض، يوم آخر لا يعني إلا ليلًا جديدًا، وصباحًا يتبعه، وكأن المرء يعيش إلى الأبد، حتى تحين اللحظة التي نعرف فيها أن لا نهار لليل، ولا ليل لنهار.

ماتت في التاسعة صباحًا، وغفلت أنا موعدها الثابت في الاستيقاظ كمن سقط في بئر، كانت جميلة هادئة، ممددة في فراشها كنائم مسالم، وسحابتها البيضاء الخفيفة مجتمعة فوق كتفها اليمنى.

تمت الإجراءات بسرعة، انغمست فيها حتى إني نسيت أن ألقي نظرتي الأخيرة، وقبل الدفن كان عليّ أن أحصل على الخصلة الأخيرة.

في المساء بعدما انصرف المعزّون، أغلقت باب غرفتي بحرص، أخرجت كل الشرائط اللاصقة التي غُمرت بخصلها، أضفت خصلة جديدة في شريط لاصق أكبر جمع كل الشرائط، وأنا أردد جملة زميلي الصغير «إن لم تخلد ذكرى أمك، فقد ماتت مرتين»، احتضنت حزمتي السرية بقوة وقد تبدت بشبابها أمامي.

لعبة الإرادة

تمام الخامسة عصرًا، أجلس أمام التلفاز، لا أذكر كيف جلست أمامه، ولا أعرف متى سأقوم، ولا أعرف سبب جلوسي. يتكرر مشهد ثابت طوال الوقت الذي أنظر فيه إلى الشاشة، رجل يمسك بعروس ماريونت خشبية، بلا ملامح، ولا ملابس، فقط قطع خشب متراصة فوق بعضها لتصنع هيئة بشرية، يشرف فوقه بشري حقيقي.

عروس الماريونت تعزف لحنًا غريبًا، ممتلئًا بالنغمات الناقصة، هكذا أشعر أنه غير مكتمل.

حاولت غلق التلفزيون فابتعدت يدي عن الريموت بلا رغبة مني، أردت الوقوف فوجدتني مسمرًا بالمقعد الخشبي الذي يؤلمني، أقرر السكون بمكاني، الإرهاق يستبد بي، أو ربما علي أن أشعر بالإرهاق الذي لا يغزو خلاياي!

بمنتصف اللحن، رفعت يدي فجأة وصفقت بحرارة، رغم أن اللحن كان سيئًا جدًّا، غضبت من نفسي، قررت تحدي جسدي الذي يحبسني في ردود فعله الخاصة وأنهض. نهضت وانتظرت صراعي مع جسدي ولم يحدث، سرت كأنني أطير، لا ألمس الأرض إلا كريشة لا تحدث أثرًا، وقفت أمام صورة فوتوغرافية معلقة على الحائط. الحائط كله معتم، وإضاءة قوية تحاصر الصورة، كانت أسرة، وكنت وسطهم، أحمل طفلة صغيرة، وتقف إلى جواري امرأة، تحمل طفلًا يشبهني، وهناك، في زاوية معتمة إلى جوار الإطار، أقدام بشرية ضخمة.

حاولت التدقيق فيها، لا وجود لعمالقة في زمننا، انتشلني جسدي اللعين فجأة، وضعني فوق المقعد مرة أخرى فتألمت، حاولت الوقوف فمنعني، وُجه وجهي نحو التلفزيون مرة أخرى، كانت عروس الماريونت ما زالت تعزف لحنها الغبي، صفقت مرة أخرى بلا رغبة، حاولت منع يدي وفشلت، وجدتها ترتفع إلى أعلى فجأة، وتسقط إلى جواري، وتعاود الارتفاع والسقوط، وكأن جسدي يؤدبني على التمرد، قررت أن أواجه فعله بفعل مماثل، عندما رفعت يدي استسلمت، وعندما سقطت، تمسكت بحافة الكرسي، تمسكت بقوة رغم غياب أصابعي، كانت يدي مجرد كف وإبهام، ولم أفهم متى ولا كيف تحولت يدي إلى شكلها المرعب، سأفكر في ذلك فيما بعد، الآن عليّ أن أنتصر على إرادة جسدي، وأن أجعل لعقلي القوة العليا.

تمسكت بالكرسي رغم ألم الجذب، كما لو أن هناك حبلًا يقيدني ويحاول فرض سطوته علي، شعرت بذراعي ستتفتت، لو لم أفلت الكرسي في تلك اللحظة سيتحطم، أوشكت على تركه، لكني تراجعت في آخر لحظة، لا يهم التفت في سبيل الإرادة، تمسكت أكثر، ذراعي تقاوم، تريد أن ترتفع، ما بين شد وجذب ارتخت ذراعي فجأة، أصبحت حرة.

بقيت جالسًا تلك المرة برغبتي، أردت أن أشاهد العرض المتكرر تلك المرة بنظرة مختلفة غير المفروضة، تكونت ملامح الماريونت، عيونه صغيرة كعيوني، أنفه أفطس مضحك، وجسده ضئيل، ملامحي انطبعت فوق جسد خشبي، فابتسمت وأنا أتخيل لكم الفنان المجرم الذي سرقني بلا استئذان.

اكتملت ثغرة في اللحن، فأصبح بشكل ما مفهومًا، إلا الجزء المعطوب الذي يشعرني كلما مر على أذني أنني أسقط داخل حفرة، قررت تقدير محاولة الإصلاح، رفعت يدي المتحررة، وأجبرت يدي الأخرى على التصفيق، كانت قوة الضرب على الكفوف غير متجانسة، فخرج التصفيق ضعيفًا رغم قوة يدي المحررة، ولم أهتم، شددت الأخرى، قاومت نفس المقاومة، غالبت ألمي حتى تمكنت منها، تغير المشهد في التلفزيون فجأة، وقفت الماريونت، اتجهت إلى مرآة كانت مختبئة بالظلام، وقفت تتأمل نفسها، نظرتُ حولي أبحث عن مرآة، ولم أجد، أردت سطحًا عاكسًا أتأمل ملامحي فيه، فالماريونت بالرغم من معرفتها بنفسها، لم تتوقف عن تحسس ملامحها. لم أجد سطحًا عاكسًا، قررت بعد نهاية العرض سأتأمل نفسي بانعكاس الشاشة المظلمة، الأمر بسيط.

اختفى العرض فجأة، أعتمت الشاشة، وبقي الضوء المنعكس من صورة عائلتي التي لا أجدها، حاولت الاقتراب من الشاشة فابتعدت رغمًا عني، كما لو أن القوى التي تقيدني تمنعني، قاومت وأنا أشعر بإرهاق تام، تلك الإرادة مهلكة، الاستسلام نعيم، حدثتني نفسي، حركت رأسي بجهد كبير حتى أطرد الفكرة، شددت جسدي أكثر تجاه الشاشة، أصبحت أمنيتي الوحيدة في تلك اللحظة أن أصل إليها، حتى لو لم أر إلا العتمة.

مرت ساعة، ساعتان، ثلاث؟ مرت دقيقة، اثنتان، ثلاث، لا أعلم، كل ما حولي لا يتغير، أسمع همسًا كلما قيدتني القوى، وشهقات كلما اقتربت من الشاشة، ربما أسرتي تراقبني من مكان ما، ربما محبوسة وتنتظر تحرري لتحريرها، كان التخيل ممتعًا لرجولتي، دور البطولة هو ما أريده الآن، سألعبه، لكن بمجرد التحرر من مأساتي.

اقتربت بضعة إنشات، وأنا أفكر أنني متلبسًا بعفريت لا يريدني حرًّا، قاومت أكثر، أنا أخاف العفاريت، رغم أنني لست طفلًا، لكني أخافها. سأقترب من الشاشة، ويتبدد كل شيء، ستسقط القوى، وسيموت العفريت، وستخرج أسرتي.

قاومت أكثر، شعرت بالقوى ترتخي، وقوتي تزداد، اقتربت من الشاشة، تمسكت بها بيديّ، بحثت عن وجهي فيها، فشلت، ارتخى جسدي كله دفعة واحدة، وسقطت الأحبال التي قيدتني ولم ألاحظها.

آخر ما لمحت، بعدما انتشر الضوء فجأة؛ جسدي الخشبي، وملامح الماريونت المطبوعة فوق وجهي منعكسة بالشاشة.

هناك.. على الجانب الآخر

منذ بضع ساعات، تم الطلاق بيني وبين زوجتي، الساعة الحادية عشرة صباحًا، كان أول شيء فعلناه عندما استيقظنا، بتنا ليلتنا في غرف منفصلة كأول مرة وآخرها، لم أستوعب سبب الطلب، كل ما قالته إن هذه الحياة باتت لا تناسبها.

كلمة عدم المناسبة كلمة فضفاضة، خبيثة لا يمكن استشفاف السبب الحقيقي منها، أسبب مادي، تمنٍّ، ملل، طموح مؤجل أزهقته دون وعي مني، لم أعرف. تركت الخبز من يدي، نظرت نحوها بإرهاق، متوقعًا بعد يوم عمل طويل أنها تختلق دعابة لتخفف ضغوطي، وجهي لم يكن مبتسمًا، وقرارها كان حازمًا.

تراجعت إلى الوراء، أتمسك بمسند المقعد خلفي كي يمتص صدمتي، لم أتخيل أننا في يوم ما سنصل إلى ذلك الطلب، كانت الضغوط من حولي تجبرني على اقتصاص ساعات من المنزل، وأن أضعها في فم العمل حتى ينتج المال.

حاولت أن أثنيها عن رغبتها، سألت عن السبب، عن الحلول، عن أي شيء يجعلها تتراجع، أو حتى تؤجل القرار ليوم آخر تكون فيه أكثر هدوءًا، ولم تفعل، أعلنت أنها ستنام بغرفة الأولاد، وفي الصباح سنذهب إلى المأذون وستترك لي المنزل، واختفت.

حرقت علبة سجائر كاملة في شرفة الغرفة، ترنحت كسكران بين الإرهاق والقلق، بين تصديق ما حدث وتكذيبه، النهار سيظهر كل شيء، فالليل من طبعه أن يخفي الحقيقة ولو بحجم فيل، ويضاعف التعب حتى وإن كان راحة مطلقة.

في الصباح سمعت حركتها الدؤوبة بين غرفة الأولاد والصالة، كانت تجمع ما يخصهم، كومت الحقائب إلى جوار الباب، وانتظرت بصبر أن أفتح باب غرفتنا لتكمل اللملمة.

وقفتُ أمام الباب، لم أتحرك، سألتها مرة أخرى عن قرارها المغلف بالتعب الذي ألقته كقنبلة في وجهي بالأمس، وأكدته، لم تتراجع قيد أنملة، سألت:

- والأولاد.

- لا تقلق.

قالتها ولم أفهم، أتقصد أنني سأنال حصتي منهم، أم أنها قصدت قدرتها على رعايتهم.

- سأذهب أنا، لا تتركي البيت.

- لا أريده.

نطقتها بألم، ألم واضح غلف نبرتها وملامحها، لا أنكر الفزع الذي احتلني، راجعت تصرفاتي بسرعة، في محاولة للوقوف على الكبوة التي صنعت ما أرى.

لم أخنها يومًا، لم أشرب الخمر، لم أتأخر خارج المنزل إلا بالعمل، ولم أعرف طريقًا للمقهى مع صديقي الذي فقد الأمل في مقابلتي. كنت زوجًا صالحًا، لم أصل لدرجة القداسة بالطبع، لكني لم أدنس وجودها.

ركبنا السيارة في صمت، لم نتناول الإفطار كعادتنا، كنا ممتلئين كل منا بوجبته الخاصة من التقلب.
الأولاد استشعروا الوضع الجديد، رغم محاولاتنا إظهار الأمر كشيء طبيعي يحدث كثيرًا بالطريقة ذاتها، التزموا الصمت.

رتبت زوجتي كل شيء، وشعرت بالغدر، استأجرت شقة في نفس البناية التي تسكن فيها والدتها، أخبرتني بقيمة الإيجار، مصروفات المدارس، ملابس الأولاد، واشتراكات النادي، أعطتني ورقة مزدحمة بالأرقام والحروف التي لم أرَ منها شيئًا، فقط لتؤكد أنها لن تأخذ أكثر من حق أطفالها، أما حقها فقط قررت -للمرة الثانية- أنها لا تريده.

في جلوسنا أمام المأذون، وهو يحاول إثناءنا عن القرار، ظلت جملتها برفض البقاء في البيت تطنّ في أذني كنحلة شريرة، لا توجد امرأة عاقلة تتنازل عن حقوقها إلا لو ذاقت الأمرين، ولا تصل إلى ذلك الحد من التخلي إلا إذا اختبرت أقصى درجات اليأس، حاولت مرة أخرى أن أنبش في ذاكرتي المتخمة بالحياة، وقلبي الذي تعطن من أوامرها، ولم أتحصل إلا على الفراغ، تطن النحلة من جديد برأسي وتوسوس كشيطان أن الأمر به رجل آخر.

حركت رأسي بنفور من الفكرة، حاولت منع نفسي من التفكير فيها، وفشلت. قبل أن يفتح المأذون دفتره طلبت محادثتها على انفراد، فابتسم المأذون، وتوترت هي. كنت مباشرًا في السؤال، ففي كل الحالات أنا متهم بشيء لا أعرفه أوصلنا لتلك النهاية، فما الضير من بند إضافي لقائمة اتهاماتي!

سألت السؤال، ورمقتني بنظرة ازدراء جعلتني أندم على التسرع، ففي باطنه اتهام بالفسق، الخيانة، الزنا ربما، في باطنه انهدام آخر جسر يربط بيننا، وقطع الخيط الرفيع الذي تخيلت أن بإمكانه رأب الصدع الحادث.

لم تجِبني، اكتفت بنظرة احتقار سريعة وعادت لتجلس أمام المأذون بوجه مغرق بالدموع، ولم يستطع هو أمام إصرارها وصمتي، إلا أن يطلب مني أن أقول الكلمة.

نطقتها، تنهدتْ في ارتياح وازداد انفراط عقد دموعها، رأيت نفسي بصورة بشعة، أنا مجرم بطريقة ما، تمنيت لو بمقدوري مواساتها، أن أربت فوق كتفها النحيل، أو أحتضنها كما لم أفعل من قبل. لماذا لم أحتضنها من قبل، أعدت شريط حياتنا معًا، ووجدت علاقتنا جافة، روتينية بحتة كالأموات.

لكوني واقعيًّا، سأكون مبتذلًا لو قررت الركوع على ركبتي وطلب المغفرة، وبدء صفحة جديدة تملؤها سنين منسوخة من شهر عسل غير حقيقي كما الأفلام، استسلمت للواقع، هناك قصص لا يكتب لها الاكتمال، وأظن أن الأمر لا يعيب أحدًا.

أوصلتها إلى شقتها الجديدة، رمقتني أمها بنظرة اتهام، واحتضنني أطفالي كما لو أننا لن نتقابل مرة أخرى أبدًا، وعدت إلى شقتي وحيدًا.

الأمر غريب جدًّا، بعد سنوات طويلة من وضع معين ثابت يتبدل كل شيء، اعتدت عند عودتي، وأنا أبحث عن مفتاحي أن أسمع صرخات أطفالي الشقية، وصرختها المتعبة نافذة الصبر، اعتدت على الطعام الطازج، والأركان المعطرة، ورائحة الملابس المغسولة بالشمس، اعتدت الصخب، الحيوية، والعائلة. لكن البيت خلا فجأة، أصبح صامتًا كقبر، تحجرت أركانه التي تنفستُ وجودها من قبل، اختفى الدفء كما لو أنها حملته داخل حقيبة من حقائبها، تاركة خلفها برودة لم أعرفها منذ زواجنا.

وقفت بالشرفة، حرقت علبة سجائر جديدة، وأنا أرسم الجانب المظلم من المشروع الفاشل، سيكون الفعل التلقائي مواساة الزوجة، الشفقة على الأطفال، السؤال عن الأسباب، الإمعان في مواساة الزوجة مرة أخرى، التوعد بالانتقام منه بزوج آخر أفضل، والزوج.. لا شيء.

تُهمش مشاعر الرجال عادة بعد الانفصال، قرأت العنوان في أحد الجرائد، قرأت العنوان فقط، ولم أجد متسعًا من الوقت للتفاصيل، لكن تلك اللحظة تجعلني أحاول تخيله، ستكون مقدمة طويلة عن أسباب الطلاق، ثم إلقاء الضوء على زوجة شريرة وزوج طيب، زوجة طامعة وزوج مستَغَل، فينتهي الأمر بطبيعة الحال لانتصار الشريرة على الطيب كنتيجة تلقائية للحياة، وينتهي المقال بدراسة نفسية يقدمها أحد أطباء علم النفس المشهورين عن أزمات الزواج، وأخرى مع استشارية للعلاقات الزوجية. أين مشاعر الرجل بحق السماء.

نفضت الفكرة من رأسي، أردت أن أخرج من الصدمة بسرعة قبل أن تلف خيوطها حولي فتشل حركتي، أدرت مشغل الأسطوانات، اخترت أغنية تكرهها زوجتي، ورفعت الصوت لأقصى مدى، كشاب مراهق سافر والداه وتركا له المنزل كله، سأكون أنا المراهق الذي تركته حبيبته ليداوي جرحه.

طلبت طعامًا من الخارج، الشيء الذي حرمته زوجتي على المنزل حتى لا يصاب الأطفال بالمرض، اتصلت بصديقي الذي ربما نسيني، وطلبت منه الحضور إلى بيتي في الخامسة، وليحضر معه أصدقاءه، لم أتصل بأهلي، لم أكن مستعدًّا لجلسة استجواب، وصدمة، ودموع واتهامات، أجلتها ليوم آخر، فالحقيقة أن ما حدث قد حدث، وانتهى الأمر.

بدلت مكان الأرائك، السفرة، عريت سريري من فرشه، ووعدت نفسي بإحضار فرش جديد، أحدثت تغيرًا جذريًّا في شكل البيت، ارتميت على أحد المقاعد، امتصصت دخان سيجارة بعمق حتى كدت أختنق، أوقفت الأغنية فجأة، خلعت خاتم الزواج من بنصري الأيسر، وجلست أراقب الفراغ من حولي وهو يتضخم كوحش، ويبتلعني!

كلوحة دوريان

كل يوم، على مدار أسبوع، ولساعتين متواصلتين، تصر ابنتي أن أجلس أمامها لترسمني. لم أستسغ فكرة أن أكون نموذجًا للرسم، لست وسيمًا، يتمدد بطني أمامي بشكل ملحوظ رغم نحافة جسدي، ويعطيني شعري الذي ما زال محتفظًا بسواده رغم ذلك مظهر رجل ناضج يقف بمنتصف الأربعين. لم يكن لدي نوع من الجاذبية التي بإمكان اللوح الأبيض أن يلتقطها، كما تلتقط الكاميرا الوجوه الجميلة، غير أني أضعف أمامها فلم أرفض. المرة الأولى التي جلست فيها لترسمني، وبعد أن وخزني ظهري الذي أكدت على استقامته، وابتسامتي المتخشبة التي التقطتها مصادفة؛ سألتها لماذا ترسمني؟ وبرغم شكي أنه مشروع لكليتها إلا أني كنت أبحث عن رد مختلف فأجابت:

- أنا لا أرسمك يا بابا، أنا أرسم ما تخفيه داخلك.

لم تقنعني إجابتها، رأيتها إجابة فلسفية تحاول من خلالها التشبث ببعض العمق، ربما هو أمر يخص الفنانين أمثالها الذين تتغير أفكارهم وتظهر جلية على مظهرهم كمظهرها الغريب الذي لا أحبه، ويزيد مع الدراسة.

منذ أن كانت طفلة، اكتشفنا هوايتها مصادفة عندما منحناها أوراقًا وأقلامًا لننال شيئًا من الهدوء، كانت تمارسها باختلاف شديد، تميل فيها لرمزية الأشياء بشكل يناقض حداثة عمرها، فرسم الشجرة لا يكون بجذع بني وأوراق وارفة ربيعية خضراء، بل ترسمها كهيكل عظمي محطم ومنهزم، ينبت من تكوينه أوراقًا صفراء ميتة. كانت الرسمة صادمة، وقفنا أمامها عاجزين، وخشينا أن تكون طفلتنا الصغيرة قد أصيبت بنوع من أنواع الاضطراب، زرنا طبيبًا نفسيًّا، وبعد فحص دقيق أكد أن خيال الأطفال غير محدد بالمنظومة التي نحيط أنفسنا بها، بل منطلق لا يعرف العوائق، ولم تخلقها عقولهم البريئة بعد، ونصحنا ألا نحاول السيطرة عليها أو إدخالها إلى حظيرة الأمان من خلال نسج سور المحظورات التي لا تورث إلا الخوف. انصعنا لنصيحته، حاولنا تجاهل مشاعرنا تجاه كل رسومها المجنونة، واكتفينا بالابتسامة الراضية، والكلمات المشجعة، وابتلعنا كل وساوسنا.

في عمر الخامسة عشرة، علقت بغرفتها لوحة كبيرة لفريدا كاهلو، كان وجه فريدا البطل، مرسومًا على جسد غزال لم ينج من سهام الصيادين، كنت كلما مررت بغرفتها أجدها تتأملها بتركيز شديد، وعاطفة مشحونة بالأسى تخرج بشكل دموع رقيقة، وأنفاس متقطعة، حاولت أن أمنع نفسي من سؤالها عن سر الحزن ولم أستطع، سألتها وأجابت:

- إنه الغدر يا بابا ولكن بصورة مختلفة عما نعرف.

أفزعني الرد رغم ملامح وجهي الثابتة، ما الذي تعرفه صغيرتي التي لم يخدشها العالم بعد عن الغدر، كيف وصلت لذلك التعريف الذي لم يمزج بتجربة حقيقية تجعلها توثقه إلى جانب الكلمة كمفهوم لها، خشيت أن تكون طفلتي الصغيرة الجميلة التي لا أرى مراهقتها قد تعرضت لحادث اجتماعي ولّد صدمة تدفعها للتغلب عليه بتلك اللوحة بالذات، سألت زوجتي، حدثتها عن مخاوفي، وجدت أن تداخل الأم مع ابنتها أقرب من تداخلي لمعرفة تفاصيل أكثر خصوصية لن تبوح بها لي لكوني فقط أنتمي لجنس آخر، غابت زوجتي لساعة كاملة بغرفة ابنتنا أكلت فيها مخاوفي المرة آلاف المرات، لتخرج علي بعدها بكتفين مستسلمتين لفكرة واحدة توصلنا إليها في النهاية؛ أن المراهقة لا تبقي شعورًا واحدًا بمكانه، وأنها تضخم كل الاحداث كما لو أنها فيل بغرفة ضيقة تزهق أرواحنا من الحيرة.

يوم جديد أجلس أمامها، بنفس التخشب، والابتسامة المزيفة، سألتها:

- متى تنتهين من لوحتك؟

- أنتظر شيئًا واحدًا بعدها ستكون حرًّا.

وجدت أن أفضل شيء يمكن فعله بتلك الجلسة أن أشرد في الماضي، أمر على كل الأحداث التي جعلتني أنا، السيئ منها قبل الجيد، ربما في يوم ما أؤلف كتابًا عن حياتي العادية ولا يقرؤه أحد، ربما أتعلم الرسم من ابنتي وأرسم رموزًا عن حياتي، وأعلقها على الحائط بغرفة الصالون إلى جوار رسومها، وأتفاخر أمام أقاربنا بأن «ابن الوز عوام» وربما أصمت، أكتم كل شيء داخلي كما فعلت طوال عمري، وأفعل الآن. يصعب على المرء أحيانًا أن يكون بواحًا للألم، أن يشكو صعاب نفسه، أن ينفتح على آخر ويدخله إلى قلبه وعقله ليطلعه على نقاط ضعفه وتحطمه.

اعتادت زوجتي أن تجلس إلى جواري بالساعات في انتظار فتح صندوق الفضفضة الذي أغلقه بمئة قفل، اعتادت الصبر، الصمت، التربيت بحنان على كتفي كنوع من الدعم لما لا تعرف، وعندما استحال الأمر، وضعت أمامي دفترًا بلون أزرق قاتم لأسكب فيه نفسي، وفشلت التجربة قبل أن تكون، لم أمس الدفتر، لكني كلما نظرت إليه ملأته بمئات الكلمات غير المنطوقة.

تجلسني ابنتي في انتظار شيء لا أقوى على منحه، سألتها:

- ما الشيء الذي تنتظرينه؟

- ستراه.

نهضت رغم تذمرها، ظهري أعلن عصيانه، ووجهي تألم من ابتسامته المفتعلة، حاولتْ إبقائي، واعتذرت لها على وعد أن نستكمل اللوحة في اليوم التالي بوقت مضاعف، وأمام تمسكي بعذري وافقت، خرجتُ واستمرت هي في التدقيق بلوحتها، حريصة ألا ألمح شيئًا منها.

في الصباحات التي أستيقظ فيها مبكرًا، وأتجول بالمنزل بلا هدف واحد بعد أن أنهي جريدة الصباح، وأشرب كوب الشاي الأول في اليوم، أمر بحجرة الرسم التي تتركها مفتوحة بثقة، لعلمها الأكيد أننا لن نقتحم مساحتها الخاصة، تحدثني نفسي كل مرة أن أختلس نظرة، مجرد نظرة واحدة أقيم فيها ملامحي فوق اللوح الأبيض، لكني أتراجع وأنا أذكر جملتها عن الغدر، لن أضيف تعريفًا آخر لقاموسها، رغم إدراكي أن الجامعة والحياة عمومًا، قد أطعمتها بعض التجارب الفاسدة. أتراجع بهدوء، وأبتعد عن الغرفة حتى يحين الوقت الذي تأذن لي بالدخول لإكمال ما بدأنا. جلست هادئًا، شاردًا في عالمي، وشاردًا فيها، ابنتي الوحيدة التي يشغلني مستقبلها، وأخاف عليها من الحياة، دققت في نظراتها الخاطفة وهي تملأ بملامحي فراغها، كيف لم ألاحظ من قبل أنها ورثت عني جبهتي العريضة، وحاجبيّ الكثَّيْن، ترى أتراها نعمة، أم نقمة تهدد ثقتها بنفسها؟ ربما تراها هي تشكيلها الخاص، من طريقة جمع شعرها للخلف وعدم اللجوء إلى غرة تحد من منظرها، وتركها لحاجبيها الطبيعيين اللذين يشبهان لوحة فريدا جدًّا، أظن أنها راضية، سعيدة، واثقة من هيئتها، ولا تهتم برأي أحد.

ابتسمت رغمًا عني، ابتسامة فخورة، ومثقلة بالخوف في آن واحد، كنت مغيبًا فيها، حتى إني لم ألحظ توقفها عن الرسم، لم أنتبه إلا عندما وقفت فجأة، تتأمل لوحتها بنظرة تقييمية أخيرة، قبل أن تعلن أنها ستديرها نحوي. ارتبك نبضي، تقلصت معدتي، وتسارعت خفقات قلبي كأني على وشك خوض امتحان، أو معرفة نتيجته.

أدارت لوحتها، اقتربت منها، وضعت نظارتي بدقة فوق أنفي، نظرت إلى اللوحة، رأيت رجلًا عجوزًا، متعبًا، يحمل فوق أكتافه كتلة داكنة من الألوان شعرت بثقلها، رجل ملأت التجاعيد وجهه ولم تترك حيزًا فارغًا، غابت ابتسامته السعيدة وحلت محلها ابتسامة الخوف الذي شعرت به منذ ثوان.

سألتها بتعجب:

- أتريني بتلك الصورة؟

قبلت خدي وهي تجيبني:

- أصدق صورة لأب.

إيقاع

يوم الجمعة من كل أسبوع، في تمام التاسعة مساء، نتكدس في بيت صديقنا الأعزب، حيث لا قواعد، لا قوانين، لا زوجات.

حرمت علينا زوجاتنا بقرار صارم، لا أصدقاء في البيت النظيف، لا سهرات في البيت المرتب، لا أعباء جديدة تضاف بعد يوم طويل. لن يتحول المطبخ إلى مقهى للقهوة والشاي وغيرها، ولن تكون غرفة الصالون مرتعًا لمعارك بلاي ستايشن تاريخية، ولا صرخات حماسية لهدف وهمي يسدده ميسي.

سيكون بيتًا ساكنًا، هادئًا، فندقًا لو أحببنا تلك التسمية، المهم أن يظل كما هو، دون حركة أو تغير واحد. تحولت الراحة التي حلمنا بها بمنظورنا الخاص داخل بيوتنا، إلى حلم بعيد نحققه في بيت آخر.

اليوم الذي اقترح صديقنا الفكرة؛ كنا في حالة ملل من التسكع بالمقاهي، حيث تُكشف للجميع، فلا مجال لراحة في حديث، أو في حركة، الرغبات جميعها محددة برد فعل الناس. يومها قال إن يوم الجمعة يوم فارغ، فما الذي يمنع من ملئه بجلسة كما نحب. وافقنا بسرعة، ولم تمانع زوجاتنا من الاختفاء كل نهاية أسبوع على سبيل الترويح عن أنفسنا، والحقيقة هي الارتياح من وجودنا.

بسخرية، وضع صديقنا نسخة مقلدة بحجم يقارب حجم واحد منا من تمثال الحرية، وضعه إلى جوار الباب، ألبسه نظارة شمسية، وأخفى المفتاح بالشعلة. كانت طريقته الرمزية في إيصال مفهومنا جميعًا عن التحرر من القيود، وأعجبتنا.

بمجرد أن نجتمع تنتشر الفوضى، المباريات الوهمية طوال الوقت، الطعام الجاهز، التدخين دون الوقوف إلى جوار النافذة، ولعب الكوتشينة بأحكامها المجنونة.

لا نتذكر من أصر على اللعبة، أو من أطلقها، بدأناها فجأة، اجتمعنا حول مائدة الطعام الصغيرة، وزعنا الورق، وترقبنا اللحظة التي يسقط الشايب في يد واحد منا.

المرة الأولى، حكمنا على أحدنا أن يقف على حافة الشرفة لخمس دقائق كاملة، غير متمسك بشيء، كنا نراقبه باضطراب، خشينا أن تتحول اللعبة إلى مأساة، لكن بمجرد أن مرت بسلام أصبحت طقسًا لا نتخلى عنه كل لقاء.

في كل مرة نبالغ في الأحكام، نصل إلى أقصى درجات التهور، وكأننا ننسلخ من ثوبنا الآمن ونختبر مناطق لم نتخيل أنها فينا، مرات نبكي، مرات أخرى نضحك حتى تنقطع أنفاسنا، أضاف لنا التحدي بعض الجرأة، وانعكس ذلك على حياتنا بشكل أكثر هدوءًا، والتزامًا بكل القوانين الموضوعة في بيوتنا حتى ننال تلك الساعات في النهاية.

عندما حان دوري، وسقط الشايب بين أوراقي، اجتمعوا بعيدًا عني، تهامسوا حتى لا أسمع، كنت ضمن تلك المجموعة الأسبوع الماضي، قررنا أن يتناول صديق لنا التركيبة التقليدية من الحار والحلو، وراقبناه وهو يلفظ كل ما دخل معدته قبل أن ننقله إلى المستشفى ونسقط في نوبة ضحك أمام سريره.

أوشكت سيجارتي على الانتهاء وأنا أنتظرهم، ابتسموا في توقيت واحد عندما اختفى صديقنا الأعزب لثوان، ثم عاد ممسكًا بحبل غليظ.

صنع مشنقة بدائية، وربطها في حلقة معدنية مثبتة بسقف الغرفة. لم أصدق أن علي فعل ذلك، ضحكت بسخرية، هذا ما ينقصني، كانت بوادر الاكتئاب ظاهرة على تصرفاتي، أدخن بشراهة، أنزوي دون حديث، ورغم تلك الصلاحيات الممنوحة لي في بيت صديقي إلا أني لم أشعر بالرغبة في التفاعل، خرج صوت أحدهم مرتفعًا متحمسًا، يخبرني بالتجربة المعروفة من التعلق بين الموت والحياة وأنها أقوى من جرعة مضاعفة من المخدرات، حركت أكتافي بلامبالاة، وقفت على الكرسي الذي وضعوه أسفل الحبل

مباشرة، وضعته حول عنقي دون تردد فأفزعهم تصرفي، حتى إنهم للحظة قرروا التراجع، ولم أستجب، فقط اندفعت أحكم الحبل، وفي لحظة ركلت المقعد.

كان الحبل حول عنقي يشتد، يضعني تحت شعور المقتول بسكين ثلم. برد فعل لا إرادي حاولت وضع أصابعي بين عنقي والحبل، ولم تجدِ حركتي نفعًا، الدم اندفع إلى رأسي، وتنفسي أصبح أبطأ، حملني صديقي الأعزب في محاولة بائسة منه لإنقاذي، ولم أكن مستعدًّا لذلك، فركلته كما ركلت الكرسي قبل دقائق.

بدأت الرؤية تتشوش، ظهر رجل كظل، تختفي ملامحه في سواد مفاجئ، يتبعه نسخ منه جميعهم يتشحون بالأسود.

وقف الرجل أسفل قدمي تمامًا، فكرت أنه سيفعل مثل صديقي، سيكون ملاكي الحارس الذي سيحاول إنقاذي، في تلك المرحلة أحتاج لإنقاذ عاجل، تبدى أمامي تهوري وغبائي، وتجسد الندم كرجل عجوز ضعيف يبكي في صمت.

ارتفع صوت الرجل ساخرًا فجأة:

- نعم.. نعم.. أحكمته جيدًا حول عنقك، جميل.

قلت برجاء:

- الحبل يضيق، يشتد.

زمجر برفض وهو يلوح بكفه:

- توقف عن نعته تلك الكلمة السخيفة.. حبل! أي حبل هذا؟!

اسمه إيقاع.. نعم إيقاع.. من حيث أتينا نسميه هكذا.. إيقاع.. رددها خلفي حتى تعتادها، إ.. ي.. ق.. ا.. ع.. ردد..

أمرني فرددتها بصوت مبحوح شاحب، فاستكمل راضيًا:

- عظيم.. عظيم.

قاطعت رضاه عن نفسه وأنا أسأل عن الاسم الغريب، لينظر إلى نسخه المظلمة ويستنكر:

- ماذا؟ تسأل عن اسمه! غبي، تحتاج لأن تُعمل عقلك الصدئ، ألم تفكر أبدًا؟ لمرة واحدة على الأقل في حياتك البائسة؟ حسنًا.. حسنًا.. سأخبرك بإيجاز سريع أمامنا انتحارك ولا نريد هدر الوقت.

أي انتحار! فكرت، لقد تراجعت عن الفكرة منذ ثوان، منذ شجبني الحبل دون إفلات، منذ أن اختنقت، وضاق نفسي، وأوشكت عيوني على الانفجار، أردت الاعتراض، إلا أنه استكمل كما لو أني غير موجود.

- ألا تسير في إيقاع؟ شمال.. يمين، شمال.. يمين، واحد.. اثنان، واحد.. اثنان، ألا ينبض قلبك في ضربات منتظمة؟ بوم.. بوم.. بوم، واحد.. اثنان.. ثلاثة، هو إيقاع، عندما قفزت من فوق حافة الدنيا قبل قليل، تأرجحت كبندول ساعة منتظمة للغاية، ساعة! مصادفة مضحكة، تصادف قفزتك تمام العاشرة، ستتأرجح كبندول ميت عندما تعلن الساعة عن تمام توقيتها.

أنتَ مدهش في موتك.. لم تكن هكذا في حياتك أليس كذلك؟

لم أفهم، حياتي عادية، مثالية في الملل، هادئة كما تمنيت دومًا، وحتى وقت التمرد فعلناه بحد لا يهلكنا، أخبرته أفكاري بشفاه مطبقة وجسد يقاوم التأرجح، فاعترض:

- كنت تسير على إيقاع الكسل، الجبن، الاستسلام، الهروب من مسؤولياتك ثم تلوم الدنيا أنها لم تنصفك.. هراء، رجل هراء يتأرجح كبندول ساعة، سنقيم حفل تندر على شرف شبحك، هيا.. هيا، توقف عن محاولة النجاة، لن يساعدك أحد.. أترى أصدقاءك، لقد توقفوا عن محاولة إنقاذك، ظنًّا منهم أنها رغبتك التي تتأرجح معك، لن يلاحظك أحد إن كنت تسأل، نحن فقط هنا.. سننتظرك حتى ينتهي إيقاعك.

توقف عن الكلام فجأة، عقد ساعديه أمامه وهو يراقب تأرجحي الذي يبطئ، كنت أحاول المقاومة، لكن ذلك الخدر الذي سرى في جسدي أوقفني، فأغمضت عيني واستسلمت إلى الظلام وأنا أسمعه يختم حضوري:

- جيد، الآن بإمكاننا زيارة مهزوم آخر نعلمه الإيقاع!

ملامح

منذ ساعات وأنا أمسك بيد أبي الذي يحتضر، كانت الحشرجة واضحة، ومع كل نفس صعب أتخيل أنه لن يعود داخله مرة أخرى، فأخاف. لا يمكنه تركي هكذا، دون أن يمنحني ما حرمت منه طوال حياتي.

لفظتني أمي من رحمها بلا ملامح، وامتنع أبي في تلك اللحظة أن يمنحني إياها. لم تفهم أمي لحظتها سبب امتناعه، كل ما شغلها أني سأكبر دون تمييز، سأسير بين الناس كأني شبح لا يُرى، وسينساني الناس، حاولت استمالته للتوضيح، وفشلت، كان صمته قويًّا، وفمه مغلقًا بقفل غليظ لا يلين لدموعها.

أسقتني أمي لبنها قطرات فوق المساحة الفارغة من وجهي، كنت أشعر بطعمه في خلاياي حتى بعدما كبرت. كلما كتبت لأحدهم ذلك ضحك، ولم يفهم كيف يعيش الطعم في الجسد، لم أستطع التفسير أنه تغلغل في، ولم يمر مثلهم عبري.

كبرت بلا ملامح، أسير، وأركض، وأتنفس، ويدهن سطح وجهي الأملس بالطعام المخفوق. كطفل لم ألحظ الفارق إلا مع اندماجي بمن في عمري، كنت أجد وجوههم غريبة، أنظر في المرآة فتحدق بي خلاياي العديدة التي لعبت دور ألف عين زُرعت في، كان جسدي كله ينظر في لحظة واحدة.

عندما سألت أمي بكت، وعندما سألت أبي تأملني بلا هدى وصمت، يحني رأسه خشية أن تسقط عيناه على موضع عيني فيفضح سره الذي لا أعرفه. عبر سنواتي القليلة لاحظت أن ملامحه تتغير، عيونه الواسعة الجميلة كشمس، أصبحت ذابلة كزهرة مطرودة من الحياة، بشرته الحنطية المفعمة بالصحة تحولت للون أصفر شاحب، ورموشه تساقطت كندف ثلج.

امتلك أبي رموشًا كثيفة، كثيفة جدًّا، طولها يتعدى عقلة إصبع، من شدة جمالها كان يتعرض للسخرية، بعضهم يقترح عليه أهمية التحول إلى امرأة، وآخر يجذبه منها ليتيقن من حقيقتها، وآخر يبتعد بملامح نافرة.

تمنيت أن يمنحني رموشه، أن أتعرض لكل تلك المضايقات، أن أكون مرئيًّا، ولم يحدث.

ازداد أبي ضعفًا، خانه جسده، وهن حتى أرقده الفراش، وقتها كنت في الخامسة عشرة، أتمنى أن أذرف الدمع أمام لوعة أمي، واحتضار أبي، أتمنى أن تنظر نحوي الفتاة التي أتابعها ككاميرا مراقبة مصمتة.

أمسكت يده، أمسكتها بقوة، ممنيًا نفسي أن تصل إليه كل توسلاتي، نظر نحوي وسقطت دموعه، ولمس بإصبعه فوق وجهي المسطح.

تخيلت أن تلك الحركة موافقته على جعلي مثل كل البشر، وفي الوقت الذي أوشكت فيه على تخيل ابتسامتي التي أريدها كابتسامة أمي؛ سحب إصبعه فجأة.

هجرت البيت بعد فعلته، كنت أنام بالشوارع مرافقًا الكلاب التي لم تتوقف عن سكب لعابها فوق وجهي كما لو أنها تواسيني. اشتدت البرودة، ونخرت عظامي، وكبر معها عنادي، الكلاب صنعت حولي حلقة تدفئة وكأنها سعيدة بالبشري الذي لا يقلد زمجرتها ولا يصرخ فيها بصوته الخشن.

عثرت علي أمي بعد بحث شهور، كان بطنها منتفخًا، ضحكت خلاياي في مرارة، الآن ستكون هناك نسخة أخرى مثلي، مرفوضة من أبي، لن تمنح شرف الانتماء للبشر، كنت أفكر أحيانًا -بعد عودتي الصامتة إلى البيت- أن أبي يصنع جيلًا مختلفًا، سلالته الخاصة النادرة، مجموعة بلا تعابير حتي يخافها الناس. كل مجهول مخيف، اختبرت الأمر، تخيل أنك تحادث الهواء، أو حجرة مظلمة لا ترى فيها خوفك، تخيل أن تحدثني ولا تعرف وقع الكلام على نفسي من ملامحي.. مخيف.

كبر بطن أمي، كلما اقترب موعد ولادتها زدت التصاقًا بها، وكأنني بفعلي سأصبح مرئيًّا عندما يمنح أبي للصغير القادم ملامحه، وكأنه سيخجل من تخطي الكبير وتميز الصغير بالهبة.

اشتدت آلام المخاض، صرخت أمي حتى تجمعت نسوة غريبة، وتحلق أولادهن أمام باب بيتنا في انتظار المسخ الجديد، ولم أندمج معهم، اختبأت بغرفة أمي، أمسكت بي إحداهن، حاولت دفعي إلى الخارج ورفضت، كانت صرختي المكتومة الرافضة مخلوطة بصرخة أمي الباحثة عن الخلاص، تركتني المرأة بعدما أرهقت، فجلست في ركن منزوٍ أنتظر خلاصي.

لفظ رحم أمي بنتًا، قطعة لحم وردية بلا ملامح، أصررت على حملها، كنت كبيرًا بما يكفي لأفعل، حملتها وجلست إلى جوار أمي في انتظار أبي، كانت تعلم بحاسة أم خطتي البريئة، فاحتضنتني وبكت، وهي تهمس إلى جواري أن أمنيتي قابلة للتحقق.

لم يطل انتظاري، دفع أبي الباب، وقف أمام أمي ينظر إلى الطفل، ولأول مرة يبتسم، تعود النضارة لوجهه الباهت، وتتمدد رموشه الطويلة كما كانت، حمل شقيقتي، قبل وجهها قبلة طويلة، وضع فيها لون بشرته ورموشه وعيونه الواسعة، اتسعت ابتسامته، أصبحت ضحكة عالية، كان مبتهجًا وكنت آملًا.

أدار وجهه نحوي، تأمل سطحي لفترة طويلة، طويلة جدًّا حتى خشيت أن يعود لمرضه وينساني. فجأة تركني وخرج.

تمدد أبي على فراشه، ذبل وجهه من جديد وكأن مهمته الأخيرة قد تمت بسلام، لم أتركه، جلست أمامه بعدما كتبت بخط كبير على الحائط أني أريد ملامحي، أريد أن أعيش ككل الناس، كالصغيرة التي لم تعرف شيئًا عن الحياة الصعبة بعد.. ولن تعرف.

أشاح بوجهه عني، وأشار نحو الباب بإشارة الخروج، كنت خائر القوى، شددتُ كوتر في انتظار الانطلاق للحياة، فأجهضت رغبتي. سرت مستسلمًا نحو الباب واعدًا نفسي أني لن أعود إلى البيت الذي رفضني، سأعود لأحضان الكلاب كما كانت أيامي الجميلة. عند الباب، قبل أن أغلقه بقسوة فيهرس أمنيتي، تحدث أبي، أخبرني باضطرار وهو يخفي وجهه، ودموعه تغرق صوته أن كل أشقائي الذكور من قبلي عندما مُنحوا ملامحه.. ماتوا!

الفهرس

1. إهداء
2. حزن ساق
3. غرق الحواس
4. ورقة صفراء
5. علة الكابوس
6. قوة الصوت
7. منتصر
8. شارع الكلاب
9. للموت طرقات ثلاث
10. شعرة بيضاء
11. قطار
12. خصلة شعر أخيرة
13. لعبة الإرادة
14. هناك.. على الجانب الآخر
15. كلوحة دوريان
16. إيقاع
17. ملامح